القسم الأول :

مواقف ضاحكة

الشعراء والبراغيث

صراع دام لا ينتهي ...!!!

من أمتع صفحات تراثنا الأدبي ، تلك المواقف الطريفة التي سجلتها لنا كتب الأدب ، ودواوين الشعراء، عن الليالي " الحمر " أو " السود" التي بات الشعراء فيها يتقلبون ألما وسهدا وعذابا ، من تلك البراغيث التي تسومهم سوء المنام !! وتقض مضاجعهم ، حتى إذا استيقظوا، أو لنقل : إذا تنفس الصبح [لأنهم لم يهنأوا بنوم] فزعوا إلى الشعر يبثونه شكواهم ، ويصفون ما انتابهم من أرق وعذاب أليم.

وقد تفنن العرب في التعبير عن معاناتهم من البراغيث ،بل ووضعوا في هذه المعاناة من القصص والحكايات ما يسر النفوس ، ويضحك العبوس ، فقد قالوا : إن البرغوث إذا دخل في أذن أحد ، ووضع الإنسان يده على سرته ، أو أصبعه في سرته وقال : " سبقتك " فإن البرغوث يخرج فورا من أذنه !! روى ذلك الصفدي في " أعيان العصر".!!

وروى الوطواط في " غرر الخصائص الواضحة " من الخرافات الموضوعة على ألسنة الحيوانات في مدح الصمت وذم الكلام أن برغوثا وبعوضة اجتمعا وتفاخرا فقالت البعوضة للبرغوث: " إني لأعجب من حالي وحالك !! أنا أفصح منك لسانا وأرجح ميزانا ، وأوضح بيانا ، وأكبر منك شبابا ، وأكثر طيرانا، ولي في بحر العبودية سباحة ، وفي ساحته سياحة ،ومع هذا كله فقد أحاط بي الخضوع ، وحرمني الجوع الهجوع ، وأنت – على علاتك – في جميع حالاتك تأكلين وتشبعين ، وفي نواعم

الأبدان ترتعين ، قالت البرغوث : نعم !! أنت بين العالم مطنطنة ، وعلى رؤوسهم مدندنة وطول لسانك سبب حرمانك !!وأما أنا فالتلطف بضاعتي ، والصمت صناعتي وإنما توصلت إلى قوتي بسكوتي !!"

ووصف الشاعر الأندلسي ابن شهيد البرغوث نثرا فقال : " أسود زنجي وأهلي وحشي، كأنه جزء لا يتجزأ من ليل ، أو نقطة مداد ، أو سويداء قلب فؤاد شربه عب ، ومشيه وثب ، يكمن نهاره ، ويسري ليله ، يدرك بطعن مؤلم ، ويستحل دم كل كافر ومسلم ، مساور للأساورة ، يجر ذيله على الجبابرة ، يتكفر [أي : يتغطى] بأرفع الثياب ، ويهتك ستر كل حجاب ، ولا يحفل ببواب ، يرد مناها العيش العذبة ويصل إلى [المناطق] الرطبة ، لا يمتنع منه أمير ، ولا ينفع فيه غيرة غيور ، شره مبثوث ، وعهده منكوث ، وهكذا كل برغوث !!!

ويحكي لنا أبو هلال العسكري حكاية ليلة حرم النوم فيها من تكاثر البراغيث والبعوض حوله فيقول :

وبدا فغناني البعوض مطربا فهرقت كاس النوم إذ غناني
ثم انبرى البرغوث ينقط أضلعي نقط المعلم مشكل القرآن

وقال الشاعر لسان الدين بن الخطيب شاكيا حاله وواصفا معاناته :

زَحَفَـتْ إليّ رَكائِـبُ البُرْغـوثِ نَـمَّ الظّـلامُ بركْبِهـا المَحْثـوثِ
بالَحبّـةِ السّـوْداء قابَـل مَقْدَمـي للّه أيَّ قِـرىً أعـدّ خَبيـثِ !!
كَسَحَتْ بهِنّ ذُبابَ سَرْحِ تجَلُّدِي لَـيْلاً فحَبْـل الصّبْرِ جِـدُّ رَثيـثِ
إنْ صـابَرَتْ نَفْسـي أذاهُ تعَبّـدَتْ أو صِحْتُ منْهُ أنِفْتُ من تحْنيثي

جَيْشانِ مِنْ لَيْلٍ وبُرْغوثٍ فَهلْ جَيْشُ الصّباحِ لِصَرْخَتي بُمغيثٍ؟

وهذا الأديب المؤرخ الشهير العماد الأصفهاني يصف لنا ليلة دامية قضاها محاصرا بجيوش من البق الذي انهال عليه يسفك دمه بشراسة ، والبراغيث تتراقص حول البق الهاجم فتؤازره طربة قد أخذ منها الطرب كل مأخذ ، مما اضطر شاعرنا إلى خلع ملابسه ليتخلص من تلك الجيوش التي تسكن طيات ثيابه، فإذا به يكتشف أن لون جلده قد تحول إلى قميص أحمر مما سال من دمائه:

يا لحى اللّه ليلةً قرصَتني في دياجيرِها البراغيثُ قَرصا
شَربتْ بَقُّها دمي فتغّنت وبراغيثّها تواجَدْنَ رَقْصا

قد تعرَّيتُ من ثيابي لكربي غيرَ أَنّي لبستُ منهنَّ قُمْصا
كلّما ارْددْتُ منعهنَّ بحرصٍ عن فراشي شرهن فازددن حرصا
من براغيث خِلْتُها طافراتٍ طائراتٍ جَناحُها قد حُصّا
عرَضتْ جيشَها الفريقانِ حَوْلي وهي أَوفَى من أَنْ تعدَّ وتُحصى

وبات أعرابي عند امرأة فآذاه البرغوث فقال يدعو على مضيفته ويذم بلدها ويسأل اللّه ألا يعيده إليها حتى لا تتكرر معه ليلة قضاها يتقلب من أذى البراغيث حتى كأنه جمل أجرب يحك جلده في مبركه من شدة أذى الجرب:

يا أمَّ مثواي عدِمت وجهك أنقذني ربُّ العُلا من مصرك
ولذع بُرغوثٍ أراه مُهلكي أبيت ليلي دائب التحكّك
تحكّك الأجراب عند المبرك

وقال آخر وكان في مجلس شراب فلما سكر هو وأصحابه لم ينج من وخز البراغيث ، فخيل إليه أن البراغيث أصابت نصيبا من السكر حتى إذا زادت جرعته عليها قاءت ما شربته من دمائه على ثوبه :

للبراغيث صارَ جسمي مَقيلاً ففؤادي من شرّهم في عَذاب
طفح السكر والشراب عليهم فتقافوا دمي على أثوابي

وقال علاء الدين الوداعي في البراغيث وهو يستخدم فنون المقابلة والتورية والاقتباس :

براغيثنا فيهم جرأة فبالأسر والقتل لا يرجعونا
كثيرو الإساءة مع أنهم " قليلاً من الليل ما يهجعونا"

وقال رجل من بني حمدان، تطوع مع جند الشام في حروبهم ، فرابط ذات ليلة مع جند الحدود في بعض حصون الساحل في مكان مملوء بالبراغيث والبق فقال متندما عازما على ترك الجهاد بعد هذه الليلة حتى ولو أعطوه عللى الجهاد ماشاء من المال :

أأنصر أهل الشام ممن يكيدهم وأهلي بنجد ذات حرص على النصر
براغيث تؤذيني إذا الناس نوموا وبق أقاسيه على ساحل البحر؟!
فإن يك فرضٌ بعدها لا أعُدْ لَهُ وإن بذلوا حُمْرَ الدنانيرِ كالجمْر

وقال آخر وقد زار إمارة " الري" فهاله ما وجد فيها من هواء طيب ، وحياة رغدة وفوق هذا كله حاكم عادل هو يحيى بن خالد أمير " الري" ، وتذكر أيامه

الخالية في بغداد ، تلك الأيام التي لم يذق فيها للنوم طعما ، بسبب تلك البراغيث السود المتوحشة التي تتقافز عليه إذا ما جنه الليل، وهي براغيث سمينة قوية حتى لكأنها بغال البريد :

هنيئاً لاهل الرَّي طيبُ بلادهم وأن أميرَ الريِّ يحيي بن خالدِ
تطاولَ في بغدادَ ليلى ومن يكُنْ ببغدادَ يلبثْ ليله غيرَ راقدِ
بلادٌ إذا جنَّ الظلامُ تقافزتْ براغيثها من بين مثنى وواحدِ
ديازجةٌ سود الجلود كأنها بغالُ بريد أرسلت في مداودِ

وبات أعرابي عند امرأة فآذاه البرغوث فقال يدعو على مضيفته ويذم بلدها، ويسأل الله ألا يعيده إليها حتى لا تتكرر معه ليلة قضاها يتقلب من أذى البراغيث حتى كأنه جمل أجرب يحك جلده في مبركه من شدة أذى الجرب:

يا أمَّ مثواي عدِمت وجهك أنقذني ربُّ العُلا من مصرك
ولذع بُرغوثٍ أراه مُهلكي أبيت ليلي دائب التحكّك
تحكّك الأجراب عند المبرك

وقال آخر وكان في مجلس شراب فلما سكر هو وأصحابه لم ينج من وخز البراغيث ، فخيل إليه أن البراغيث أصابت نصيبا من السكر حتى إذا زادت جرعته عليها قاءت ما شربته من دمائه على ثوبه :

للبراغيث صارَ جسمي مَقيلاً ففؤادي من شرّهم في عَذاب

وقال علاء الدين الوداعي في البراغيث وهو يستخدم فنون المقابلة والتورية والاقتباس :

براغيثنـــا فـــيهم جـــرأة فبالأســـر والقتـــل لا يرجعونـــا

كـــثير الإســـاءة مـــع أنهـــم " قلـيلاً مـن الليـل مـا يهجعونـا"

وقال رجل من بني حمدان، تطوع مع جند الشام في حروبهم ، فرابط ذات ليلة مع جند الحدود في بعض حصون الساحل في مكان مملوء بالبراغيث والبق فقال متندما عازما على ترك الجهاد بعد هذه الليلة حتى ولو أعطوه عللى الجهاد ماشاء من المال :

أأنصر أهل الشام ممن يكيدهم وأهلي بنجد ذات حرص على النصر

براغيث تؤذيني إذا الناس ناموا وبق أقاسيه على ساحل البحر؟!

فإن يك فرضٌ بعدها لا أعُدْ لَهُ وإن بذلوا حُمْرَ الدنانيرِ كالجمْر

ولم تكن البصرة بأحسن حظا من الشام وبغداد ، فهذا أعرابي رمته أقداره ذات مرة في البصرة فآذته براغيثها أذى شديدا ، وبات ليلته في حرب عوان لا تكاد تنتهي حتى طلع الصباح فقال:

ظللـت بالبـصرة في مـــراش

وفـي براغيـث أذاها فاشـي

من نافـر منـها وذي خـــش

يرفـع جنبـي عـن الفـــراش

فـأنا في حرب وفـي تـخراش

يترك فـي جنبـي كالحواشـي

ولم تكن مصر بأقل من الشام والبصرة وبغداد في حفاوتها بالبراغيث ، فهذا أعرابي آخر هو أبو الرماح الأسدي يقول كما قال سابقوه :

تطاول بالفسطاط ليلي ولم يكن ... بحنو الغضى ليل علي يطول

يؤرقني حدب صغار أذلة ... وإن الذي يؤذينه لذليل !!

وذكرت البراغيث عند أعرابي من قيس، فقال يصفها: ليلها ناصب ومددها دائب.

وذكرت البراغيث عند رجل من كلب، فقال: أخزاها الله، ما أدنأ صغارها، وما أشر كبارها، وأخفى أنظارها، وأقبح آثارها.

وهذا شاعر آخر يصور إلحاح البراغيث عليه حتى لكأنهن من قوم لهم عنده ثأر فهن يطالبنه بدمه مقابل مالهن عنده من دم ، وواضح هنا أنه يستخدم التورية بكلمة الدم فيقول :

ما للبراغيث أخزى الله ليلتها ... من يلق منهن ما لا قيت لم ينم

كأنهن وجلدي إذ ظفرن به ... وضمني مضجعي، يطلبنني بدم

وقد يستخدم الشعراء البراغيث في سياقات أخرى أكثر إيلاما، فهذا شاعر يريد أن يصف قوما بالبخل فيقول إنه وجماعة من أصحابه باتوا ضيوفا عند هؤلاء

القوم الذين اشتهروا بحلاوة حديثهم ، فما وجدوا عندهم إلا بخلا بالطعام ، وسوء مرقد ، فقال:

وليلـــة بتنـــا لـــدى معشـــر قـــد غـــرت النـــاس أحـــاديثهم
فمـــا أكلنـــا عنـــدهم قـــدر مـــا قـــد أكلـــت منـــا بـــراغيثهم !!

وهناك من استخدم البراغيث في سياق آخر كوصف مجلس فن وسماع مثل قول ابن رشيق القيرواني:

لك مجلس كملت بشارة لهونا فيـــه ولكـــن تحـــت ذاك حـــديث
غنى الذباب فظل يزمر حوله فيـــه البعـــوض ويـــرقص البرغـــوث

وأسبق منه إلى هذا المعنى الشاعر أحمد بن أيوب- من شعراء اليتيمة - في قوله :

لا أعـــذل الليـــل في تطاولـــه لـو كـان يـدري مـا نحـن فيـه نقـص
إذا تغنـــى بعوضـــه طربـــاً أطـــرب برغوثـــه الغنـــا فـــرقص

وأما الشاعر السلامي فقد ابتكر استخداما طريفا للبرغوث حين قال في صبى يعرف بابن برغوث:

بليـــت ولا أقـــول بمـــن لأنـــي إذا مـــا قلـــت مـــن هـــو يعشـــقوه
غـــزال قـــد نفـــى عنـــى رقـــادي فـــإن غمضـــت أيقظـــني أبـــوه !!

وفي مجموعته الطريفة " المواعظ والأمثال" - وهي حكايات ألفها الشاعر محمد عثمان جلال منتهى القرن التاسع عشر الميلادي، وأفاد فيها من خرافات

أيسوب اللاتينية – يحكي لنا قصة رجل ضاق بالبراغيث فراح يستغيث بالله من شرها:

فحــل مــن الرجــال يسـتغيث ... في فراشــــه يأكلــــه البرغــــوث

فهــم يشــكو بصــياح عــالي ... وهــــو ينـــادي ســـيد المـــوالي

يقــول يــا مــن خلــق البريــة ... بعونـــك ارفـــع هـــذه البليـــة

قالــت لــه زوجتــه مــا نابــك ... ومــن أذى البرغــوث مــا أصــابك

أمســكه بــين الإصــبعين باليــد ... واظفـــر بـــه لا تســـتغث بأحـــد

عجائـــب عجائـــب عجائـــب ... إنـــك والله العظـــيم خائـــبُ

مثلــك في النــاس كــثير العــدد ... في كـــل حلـــة وكـــل بلـــد

مـن طبعهم ودأبهـم حـب الكسـل ... أنبيــك عــن أخلاقهــم إذا تسـل

في كــل عــارض صــغير زائــل ... يرجــون في تصــريفه كــل ولــي

إن العظـــيم يـــدفع العظيمـــا ... كمـــا الجســـيم يحمـــل الجســـيما

وهذا شاعر قديم ضاق بالبراغيث وجافاه النوم فآثر أن يقضي ليلته متهجدا متعبدا يتلو القرآن ويصلي ويسبح ربه ولكن ... هيهات !! فلم ترحمه البراغيث :

إن البراغيث قد باتت تشيبني ... فبتُّ أحيي الدجى نسكاً وأيمانا

فلو رأيتهم يستخرجون دمي ... رأيت أكثر خلق الله عدوانا

ضحوا بأشمط عنوان السجود به ... يقطع الليل تسبيحا وقرآنا !!

ولكن الشاعرابن كاتب المرج اختلف عن كل الشعراء السابقين ، فهو يصرح بأنه ممن يصبرون أنفسهم على ألم وخز البراغيث ، وعذاب قرصها وعضها ، حتى ولو

أجبرته على البقاء عريانا ، لكن ما يكاد يفقده عقله من أفاعيلها هو دخولها إلى أذنيه فيقول :

لمن أشتكي البرغوث يا قوم إنه أراق دمي ظلماً وأرق أجفاني
وما زال بي كا لليث في وثباته الى أن رماني كالقتيل وعراني
إذا هو آذاني صبرت تجلداً ويخرج عقلي حين يدخل آذاني

ولأحد شعراء اليتيمة قصيدة وجهها للصاحب بن عباد يصف فيها مرضه بالحمى في مدينة "جرجان" وتأذيه بهوائها وبراغيثها وبقها ويستأذن منه للعودة إلى أصفهان منها :

أقمت بها أعالج كلَّ بؤسٍ من الأعلال لا العيش المهاد
تحدِّثني بحمّى لو تبدّت بخيبَر ألحقتها بالبوادي
ملازمةٌ إذا لسعت شقياً فكلُّ زمانها وقت العداد
تعاونها عليَّ سموم صيفٍ بلفحٍ من لظاهُ واتّقاد
وذبَّانٌ أُشرِّدها فتأبى وترجع كالمراغم ذي الكياد
كأني حين أطردها وتأبى أفرّق بين ذي سغبٍ وزاد
ويا ويلي من الليل الموافي فإني حين يطرق في جهاد
له جيشاً براغيثٍ وبقٍّ يطلّ عليَّ إطلال الجراد
ولي فرشٌ هي الميدان فيه براغثه وخمشي في طراد
وبقٌّ فعله في كلّ عضوٍ فعال النار في يبس القتاد
عصائب ينتحين على عروقي بعوجٍ كالمباضع في الفصاد

فـترى ثـم ترجـع عاطفـاتٍ   علـيَّ وهــنَّ كـالهيم الصـوادي
وأنقـف بعضـهنّ وفي حشـاها   دمـىً فأنـال ثـأراً مـن أعـادي
تفـرّق بـين جنبي والحشـايا   وتجمـع بـين جفـني والسـهاد
ولـو أنـي ثملـت وملـت سـكراً   لحالـت بـين طـرفي والرقـاد
واسـتر دونهـا وجهـي بكفّـي   وعطـف الـردن وهـو لهـنّ بـادي
وأظهـر في صـباحي كـلّ يـومٍ   بوجـهٍ مجـدرٍ قلـقِ الوسـاد
وأدمن حكَّ مـا تركـت بجسمي   فيحسـبني جربـت ذوو عنـادي
وقـد وقـف الـوزير علـى بلائـي   بمـا ضـاقت بـه حيلـي وآدي
وإنــي لا نهـار أقــرّ فيــه   ولا ليــلٌ يقــيني منــه فــادي
صـديقي في دجـى ليلـي عـدوي   وعبـدي لا يجيـب إذا أنـادي
وأُتـرك في ظـلام دجـاه وحـدي   فـأذكر ضـيق لحـدي وانفـرادي
وفي يمنـايَ مروحـةٌ فطَـوْراً   أذود بهـا ومـا يغـني ذيـادي
وطـوراً أسـتريح إلى انتصـابي   وطـوراً أنـثني ويـدي اعتمـادي
وعلّمـني البعـوض بلطـم خـدّي   خلائـق لسْنَ مـن شيمي وعـادي
فهـل للصـاحب المـأمول عطـفٌ   علـى عجـزي عـن الكـرب الشداد
بـإذنٍ لسـت أسـأله اختبـاراً   ولكـنّ اضـطراري في ازديـاد
شـقاءٌ لا يعاقبـه رخـاءٌ   وبلـوى تسـتنيم إلى التـمّادي
وسـيّدنا أدقّ النـاس حدسـاً   وأعـرفهم بدخلـةِ مـن يصـادي
وحسـبي مـا بـلاه في اختيـاري   وشـاهد مـن ولائـي واعتقـادي

وقد أحسن الأديب كمال الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى في ذم دار كان يسكنها حيث قال واصفا ما فيها من حشرات وآفات :

دار سكنت بها أقل صفاتها ... أن تكثر الحشرات في جنباتها

الخير عنها نازح متباعد ... والشر دان من جميع جهاتها

من بعض ما فيها البعوض عدمته ... كم أعدم الأجفان طيب سناتها

وتبيت تسعدها براغيث متى ... غنت لها رقصت على نغماتها

رقص بتنقيط ولكن قافه ... قد قدمت فيه على أخواتها

وبها ذباب كالضباب يسد عين ... الشمس ما طربي سوى غناتها

أين الصوارم والقنا من فتكها ... فينا وأين الأسد من وثباتها

وبها من الخطاف ما هو معجز ... أبصارنا عن وصف كيفياتها

وبها خفافيش تطير نهارها ... مع ليلها ليست على عاداتها

وبها من الجرذان ما قد قصرت ... عنه العتاق الجرد في حملاتها

وبها خنافس كالطنافس أفرشت ... في أرضها وعلت على جنباتها

لو شم أهل الحرب منتن فسوها ... أردى الكماة الصيد عن صهواتها

وبنات وردان وأشكال لها ... مما يفوت العين كنه ذواتها

أبداً تمص دماءنا فكأنها ... حجامة لبدت على كاساتها

وبها من النمل السليماني ما ... قد قل ذر الشمس عن ذراتها

ما راعني شيء سوى وزغانها ... فتعوذوا الله من لدغاتها

سجعت على أوكارها فظننتها ... ورق الحمام سجعن في شجراتها

وبهـــا زنــــانير تطـــن عقاربـــاً ... حــر السـموم أخـف مـن زفراتهــا
وبهــا عقــارب كالأقــارب رتــع ... فينـــا حمانـــا الله لـــدغ حماتهـــا
كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة ... ولا حيـــاة لمـــن رأى حياتهـــا
منســوجة بــالعنكبوت سماؤهــا ... والأرض قــد نسـجت علـى آفاتهـا
فضـجيجها كالرعـد في جنباتهـا ... وترابهـــا كالرمـــل في خشـــناتها
والبـــوم عاكفـــة علـــى أرجائهـــا ... والـدود يبحـث في ثـرى عرصـاتها
والجــن تأتيهــا إذا جــن الــدجى ... تحكـي الخيـول الجـرد في حملاتهـا
والنــار جـزء مـن تلـهب حرهـا ... وجهـــنم تعـــزى إلى لفحاتهـــا
شــاهدت مكتوبــاً علــى أرجائهــا ... ورأيـــت مســطوراً علـــى جنباتهـــا
لا تقربـــوا منهـــا وخافوهـــا ولا ... تلقـــوا بأيـــديكم الى هلكاتهـــا
أبـــداً يقـــول الـــداخلون ببابهـــا ... يـــا رب نـــج النـــاس مـــن آفاتهـــا
قـــالوا إذا نـــدب الغـــراب منـــازلاً ... يتفــرق الســكان مــن ســاحاتها
وبـــدارنا ألفـــا غـــراب نـــاعق ... كــذب الــرواة فــأين صــدق رواتهــا
صـــبراً لعـــل الله يعقـــب راحـــة ... للـنفس إذا غلبـت علـى شـهواتها
دار تبيـت الجـن تحـرس نفسـها ... فيهـــا وتنـــدب بـــاختلاف لغاتهـــا
كـم بـت فيهـا مفـرداً والعـين مـن ... شـوق الصـباح تسـح مـن عبراتهـا
وأقـــول يـــارب الســموات العـــلا ... يـــا رازقـــاً للـــوحش في فلواتهـــا
أســـكنتني بجهــنم الــدنيا ففــي ... أخـراي هـب لـي الخلـد في جناتهـا
واجمـع بمـن أهـواه شملـي عـاجلاً ... يـــا جـــامع الأرواح بعـــد شـــتاتها

طبيب شاعر يرثي ثوراً ... !

دأبت أكثر الكتب المدرسية على الحط من شأن عصر حكم المماليك الذين خلفوا الأيوبيين عام ٦٤٨هـ ، وطالت مدة حكمهم حتى عام ٩٢٤هـ وكأن مؤلفي تلك الكتب نظروا إلى السياسة وجانبوا الفكر، واعتنوا بالحروب، وغفلوا عن التأليف ذلك أن سلاطين المماليك حاولوا تقليد أسلافهم الأيوبيين في توريث الحكم، مما أدى إلى كثرة الانقلابات والاضطرابات.

ولعل الأحداث الحافلة التي شهدتها قرون حكم سلاطين المماليك مثل بداية الحملات الصليبية بغزو الفرنسيين لدمياط، وسقوط الخلافة في بغداد (٦٥٦هـ) وهزيمة التتار في عين جالوت (٦٥٨هـ). لعل تلك الأحداث الكبرى قد استحوذت على اهتمام المؤرخين المعاصرين ، مما قلل من اهتمامهم بالاطلاع على آداب تلك القرون ، فتعجلوا في الحكم عليها بالضعف والتهافت.

على أن عصر المماليك ضم نخبة من ألمع علماء الإسلام في تخصصات شتى مثل الفقيه ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والمحدث ابن حجر العسقلاني، والمؤرخين ابن شاكر الكتبي، وابن دقماق، والقلقشندي والسيوطي وابن الأثير، والمفسرين كابن كثير والأطباء كابن أبي أصيبعة وابن النفيس وابن الأكفاني.

وضيفنا في السطور القادمة واحد من هؤلاء الأطباء ، غير أن شهرته لم يكتسبها من مهنة طب العيون التي امتهنها ، وإنما اكتسبها من كونه شاعراً هازلاً اتخذ الفكاهة منهج حياة ، وسمة شخصية مع أنه كان حاد الطبع، عصبياً، ضيق

الصدر ويبدو أن هذه سمة معظم الفكهين حين يصنعون النكتة، ويبدعون البسمة فيما هم في حياتهم الخاصة – يعانون أشد المعاناة.

وقد كان ضيفنا كحالا [وهو لقب طبيب العيون آنذاك] ولد بالموصل ، ونال فيها تربية وتعليماً بين أهله وذويه ، وكان مولده عام ٦٤٦هـ ، فلما دخل المغول الموصل (٦٦٠هـ) بعد سقوط الخلافة في بغداد بسنوات أربع. ضاق صاحبنا الحكيم شمس الدين محمد بن عبد الكريم بن دانيال بن يوسف الخزاعي، ضاق بحياته تحت احتلال المغول ، فهاجر من الموصل إلى مصر، ومارس مهنة الكحالة (طب العيون) وذاع صيته في مهنته ، ولكن الذيوع الأكبر ناله من تفرده بفنونه الشعرية.

فقد عرفت مصر في عهده البواكير الأولى لفن المسرح، وكانت تلك البواكير أشبه شيء بما يسمى الآن (مسرح العرائس) وكان الاسم الذي اشتهرت به تلك البواكير المسرحية الأولى هو " طيف الخيال " حيث كان الجمهور يشاهد دمى تتحرك وتتحاور، تختفي ملامحها تحت أغطية كثيفة، ولكن أحداثها واضحة مسموعة.

ومع الأسف الشديد ، لم ينل هذا الفن ، ولا هذا الشاعر ما يستحقانه من عناية ودراسة ، فلا نعلم دراسة تخصصت فيه إلا ذلك الكتيب القيم الذي نشره الدكتور ابراهيم حمادة عن الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر [الهيئة العامة للكتاب حاليا]بعنوان " خيال الظل ومسرحيات ابن دانيال" . وكان ذلك في السبعينيات على وجه التقريب.

وكان ابن دانيال يكتب كثيراً من الأشعار التي يرددها أبطال "طيف الخيال" ومعظمها أشعار فكهة ساخرة ، تمثل لوناً جديداً من ألوان النقد الاجتماعي الساخر الهادف، لم يكن لأدبنا العربي القديم عهد به قبل تلك الفترة.

وديوان ابن دانيال حافل بأشعار متنوعة الأغراض، ففيها السخرية الشخصية والسخرية العامة، ونرجح أن هذا الديوان لم ينل عناية كافية من الباحثين لما يكثر فيه من ألفاظ عامية، وإن كانت أحياناً فصيحة الأصل، ولما يكثر فيه من معان جارحة للحياء العام. غير أن أبياته التي تشيع في كتب تاريخ الأدب هي تلك التي وصف فيها بيته الضيق المكتظ بالحشرات فذلك حيث يقول:

أصبْحتْ أَفقَرَ مَن يَروحُ وَيغتدي ... ما في يَدي من فاقَة إلاَ يدي

في مَنزلٍ لم يَحوِ غَيريَ قاعداً ... فمتى رقَدتْ ، رَقَدتْ غيرَ مُمَدَّد

لَمْ يبقَ فيه سوى رسومِ حَصيرةٍ ... ومخدَةٍ كانَتْ لأُمْ المهتَدي

تُلقى على طُرَّاحةٍ في حَشْوها ... قملْ شبيه السمسمِ المتُبَّدِدِ

والبقُّ أَمثالُ الصّراصرِ خِلقةً ... من مُتهمٍ في حَشوها أو مُنْجدِ

وترى بَراغيثاً بجسمي عُلِقَتْ ... مثل المحاجمِ في المساءِ وفي الغدِ

وكذا البعوضُ يطير وهو بريشهِ ... فمتى تمكّنَ فوقَ عرقٍ يفصُدِ

كما اشتهر ابن دانيال، بلون آخر من الشعر، أسماه بعض الدارسين شعر "تحصيل الحاصل" وهو شعر فكاهي رائع ، تأتيه الفكاهة وخفة الظل من بنيته الفنية التي تأخذ شكل شعر الحكمة، أما مضمونه فبعيد عن أية حكمة !! ، بل هو كلام شديد السذاجة صب في شكل حكمة غالية نادرة فمن حكمه تلك المزيفة " إنك

إذا رأيت رجلا عاريا مرتعدا في الشتاء فسوف يسألك ثوبا أو غطاء يقيه البرد !!!" ومن يقتل أفعى نهارا فقد تؤذيه !! والذي يعاني من الصداع لن ينفعه الكحل إذا اكتحل!! والطفل يضحك حين تمنحه الحلوى ، أما إن أخذتها منه فإنه يبكي !! وقد يخدش القط من يلاعبه ، والكلب يعوي إذا أوجعه الضرب !!! فتأمل من درر تلك الحكم قوله:

إذا وَجَدْتَ في الشِتاءِ عارياً	مُرتَعِداً ، نادى عَلَيْكَ بالدّفا
مَنْ قَتَلَ الحيّة في هاجرةٍ	عرَّضَ نَفْسَهُ يقيناً للبلى
وَكلُّ مَنْ يَشكو صُداعَ رأسِهِ	فليسَ يَشفي ما به كُحْلُ الجلا
وليسَ مَنْ يسكُنُ قاعاً صَفْصَفا	مثل الذي يسكُنُ بيتاً بالكِرى
والقطُّ قد يَخْدِشُ مَنْ لاعَبَهُ	والكلبُ إنْ أوجَعَه الضّرْبُ عوى
والطّفلُ قَد يَضْحكُ إنْ أطعَمْتَه	الحلوى وإن أخذتَها منهُ بكى
والخُبْزُ للجائعِ أدمٌ كلُّهُ	والصّيْفُ أدْفا زمناً منَ الشتا !!
ويشْبعُ الجائعُ بالخُبزِ وَلا	يَشْبَعُ مَنْ مَصَّ - مِنَ الجوعِ – النّوى!!

وإذا كان تراثنا الشعري القديم قد حفل بقصائد أو مقطوعات قصيرة، لشعراء تأثروا لفقد بعض حيواناتهم الأليفة كالخيل، والحمير، والقطط والكلاب ، فإن شاعرنا ابن دانيال هذا قد تفرد – في حدود علمنا المتواضع – بقصيدة مطولة رثى بها ثوراً كان له ونفق !! ، ولا يستطيع قارىء القصيدة [التي تقع في عشرين بيتاً] أن يجزم برأي فيما إذا كان هذا الشاعر يرثي ثوره رثاءً حقيقياً، أم أنه يهزل كما

رأيناه يهزل في تلك الأبيات النادر مثلها في تراثنا ، وهي التي تمثل لوناً من " الحكمة الزائفة" !!.

يقول ابن دانيال إنه فوجىء بوفاة ثوره العزيز الذي يلقبه ب "ذي القرنين" ذي اللون الأصفر الجذاب الذي يشبه لون الشفق، فكأن الشفق كسا هذا الثور درعاً وبروداً :

على مثلهِ ثَوراً ، بُكايَ يَزَيدُ ... فَلاَ برَدا جفنايَ وهو يجودُ
رزِئْنا بذي القَرنَيْنِ بأساً وَنَجْدَةً ... لهُ عَدَدٌ من بأسهِ وعديدُ
بدا وهَلالُ الأُفقِ تاجٌ لرأسهِ ... ومَنْ شَفَقٍ دِرْعٌ لهُ وبَرودُ
فَلَو أنه في ليلة العيد لاحَ لي ... لَقُلْتُ هلالٌ قد أطلَّ وعيدُ
وفي أربَعٍ قد قُمِّعَتْ بزَبَرْجَدٍ ... وهضيهاتَ يحكي ما أقلَّ عمودُ
وفي الجزعِ من رَوْقيه شبْهٌ ولَوْنه ... عقيقٌ وَنَظْمُ الوَدْعِ منه عقودُ

وقوله " فلا بردا جفناي " إما أن يكون متعمدا للتفكه – على نهج الحلمنتيشيين المعروف– أو أن يكون قد استعمله على لغة معروفة في الفصيح يسميها النحويون تطرفا لغة " أكلوني البراغيث"، وجاء عليها قوله تعالى :

﴿ ...وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ... ﴾ (١)

ويتحسر شاعرنا على نفوق ثوره مصطنعاً لوناً من التلاعب اللفظي بين هذا الفقيد، وبين برج " الثور " أحد الأبراج الفلكية المعروفة بأن مواليدها يكونون غالباً

١ . سورة الأنبياء : من الآية ٣ .

من السعداء الذين ترتفع أقدارهم يوماً بعد يوم كما يذكر أن ثوره كان من تلك الثيران التي تهزم مصارعيها فيولون الأدبار مستسلمين للهزيمة. ولسنا ندري على وجه اليقين أكانت مصر والشام- حيث عاش ابن دانيال – تعرف آنذاك مصارعة الثيران أم أن هذا الوصف، كان خيالاً محضاً من هذا الشاعر العجيب ؟ فهو يقول كم من فارس من مصارعي الثيران تصدى لصراع هذا الثور ، فلما أن رأى بأسه وخشي الهلكة وخسارة الرهان ، أسلم الريح ساقيه ، وكانت مسافة البريد [وهي مسافة أربعة فراسخ] هي أقرب مكان توقف فيه هذا الفار من المصارعة !! :

خَلا منهُ برج الثورِ والشّرَفُ الـذي سعودٌ له نحو العُلا وصعـودُ

فَكَمْ - لرِهانٍ - فَرَّ منه محـاربٌ هزيماً وأدنى ما وراهُ بَريـدُ !!

ثم يأخذ شاعرنا في تعداد مآثر ثوره الفقيد، فيذكر أنه حين كان ينكث في الأرض بقرنيه، فيثيرها تراباً يصاعد إلى عنان السماء، لم يكن يفعل ذلك عبثا ولهوا بل سعياً إلى مواجهة "عسكرية" مع خصم من بنى قومه يسمع به ولا يراه ، هذا الخصم هو ذلك الثور المجهول الذي زعموا أنه يحمل الأرض على قرنيه ، فإذا نال منه التعب نقلها إلى قرنه الآخر فيحدث فيها ما يحسه الناس من الزلازل والهزات الأرضية ، وهذا الاعتقاد الشعبي كان سائداً في تلك العصور، وذكره ابن إياس المعاصر لشاعرنا ابن دانيال - أحد مؤرخي العصر المملوكي في كتابه الشهير " بدائع الزهور في وقائع الدهور ".

فكأن ثور ابن دانيال ، كان – حين ينطح الأرض – يبحث عن ابن عمه حامل الأرض على أحد قرنيه لعله يعينه في حملها، و ينتزعها منه ، أو يدخل معه في مصارعة: أيهما أشد قوة وأعظم بأساً؟.. فيقول شاعرنا:

وَقالوا تَراهُ يَبحثُ الأرضَ ناطحا فَيَصْعَدُ نحوَ الجوِّ منه صعيدُ
فقلتُ لَهم يبغي الذي يحملُ الثرى بقَرنيه فالأرضونَ منه تميدُ

ويصف ابن دانيال ، ما كان يتمتع به ثوره النافق من مزايا، فهو ثور عظيم النفع كان يستعمله صاحبنا في إدارة ساقيته ليجلب الماء من الترع فيسقي أرضه لتجود له بالخير الوفير.

ويتغزل في جمال ثوره إذا تأمل ما في وجهه من حسن التقاطيع، وتناسقها.

كما يتحلى إلى جانب صباحة الوجه، ووسامته، بسيما الأتقياء الصالحين فهو إذا تهادى في "الزريبة" وسط البهائم راعك ما يبدو عليه من الوقار والاتزان فكأنه قائم من سجود وهو يسبح في كل صباح:

وما زل يسقي الحرث ريّاً فأخصَبَت مرابع فيها قائمٌ وَحَصيد
فآهاً لهُ ورد الشّباب أخا لمى شهيٌّ رضابِ المرشِفَين بَرودُ
وهضيهاتَ يحكي ما أقلَّ عمودُ وذي أربَعٍ قد قُمّعَتْ بزَبرْجَدٍ
مُسّبِحَ صبْحٍ قدْ عراهُ سجودُ إذا اجتازَفي ساجِ الزرائبِ خلتهُ

ويذكر ابن دانيال أن ثوره ما نفق إلا لأن الحاسدين الأشرار رموه بنظراتهم النارية المدمرة، فأردوه قتيلاً، فيا ليت حاسديه ماتوا بحسرتهم ، وعاش هذا الثور

يـؤدي واجبـه مـع صـاحبه ، فهـذا الثـور الـوفي النبيـل يسـتحق في نظـر صـاحبه ابـن دانيال أعلى درجات الحب والتقدير، حتى إنه ليؤكد لنا أن الهنود والبراهمة إنما حرموا أكل لحوم البقر إكراماً لثور ابن دانيـال ، الذي اغتالته يد المنية فبكت عليه قواديس السواقي ، والتروس التي كانت تربطه إلى تلك القواديس ، وبكت عليه "قلوب" النخيل بما تحمله من جريد أخضر:

رَمَتْهُ عُيونُ الحاسدينَ بنظـرةٍ ... فَلَيّتَ بَقى دهراً ومَاتَ حسـودُ
ومَنْ أجلهِ قد حَرّمتْ لحمَ مثلـهِ ... بَراهِمـةٌ في شَـرْعِها وَهنـودُ
بكته قَواديسُ السّواقي بأدمُـعٍ ... غِزَارٍ لَها بَينَ الحياضِ مُـدودُ
وأنت لهُ الأتراسُ حُزناً وحرقـةً ... وَنابَ لـهُ قلـبٌ عليـهِ جريـدُ

وتصل ذروة ألم شاعرنا لفراق ثوره الأصيل ، أنه رفض شراء ثور غيره تهيم إليه قلوب البقر، لأن ثوره كان من نوع نادر من الثيران ، حتى إنه لو عاش قبل عصره وأدرك أيام نبى الله موسى ﷺ لعبده بنو إسرائيل ولاتخذوه إلهاً يتقربون إليه:

ومَن بَعدِهِ ما عـانقَ البـاب سـيّد ... لـه كـل أبقـار الـبلاد عَبيـدُ
ولا جـاز مـن تحـتِ الجـوائزِ مثلُـهُ ... وسرقينـُه مِسْـكٌ يفـوحُ وعـودُ
فلو كانَ في أيامِ موسى صَبا إلـى ... عبادَتـهِ - في المشركين - يهـودُ

وهو في هذا البيت الأخير يشير إلى ما كان من أمر قوم موسى حين خدعوا السامري حتى صنع لهم عجلاً من الذهب فعبدوه في أثناء غياب موسى ﷺ منهم وذهابه لميقات ربه.

إن هذه القصيدة نموذج فذ لنوع من الشعر الفكاهي اتسعت له قريحة الوجدان الفني العربي في عصوره المتتابعة، وبلغ هذا النموذج مستوى عالياً عند شاعر "تحصيل الحاصل" ذي الحكم المزيفة ابن دانيال الموصلي !!.

يا زوجات الشعراء .. صبرا عليهم !!!

البيوت أسرار، هذا صحيح إلا عند الشعراء، فبيوت الشعراء كأبيات الشعر تنم عما وراءها، فلا تكون لبيوتهم أسرارها الخاصة.

فالشعراء غالباً ما يلجئون إلى الشعر يستظلون به من قيظ حيواتهم الخاصة وزوجات الشعراء فدائيات بغير شك، إذ يقبلن الحياة مع رجال ليلهم نهار ونهارهم ليل، أحزانهم طويلة، وأفراحهم طفولية مفاجئة، آمالهم معلقة بخيوط أشعة القمر الفضية، وسعادتهم تبدأ مع شقشقة العصافير.

وقد حفظت لنا كتب التراث العربي الأدبية نماذج شتى من حياة الشعراء الذي وصفوا مشاكلهم الزوجية، كما زخرت تلك الكتب بقصص الشعراء العشاق الذين حيل بينهم وبين محبوباتهم حيناً بسبب صرامة التقاليد، وحيناً بأسباب أخرى.

ولما كان الشعر أقرب إلى حياة الألم والحرمان والعذاب، منه إلى حياة النعيم واللذة والهناءة، فإننا سنستعرض فيما يلي بعض أشعار القدماء، أو بتعبير آخر سنتسلل إلى بيوتهم لنرى كيف كانوا يعيشون حياتهم الزوجية.

وأول شاعر سترون بيته هو يزيد بن حبناء، أحد شعراء الخوارج الفرسان إنه مسافر في إحدى الغزوات الإسلامية على الحدود، وهاهي ذي زوجته تكتب إليه رسالة، لا تبثه فيها شوقاً وحنيناً، ولا تسطر له فيها سطوراً تثبت أقدامه عند الحرب، لا تحدثه عن الشجاعة أو البسالة. وإنما تحدثه فيها عن نفسها وتسأله عن

السبب في عدم إرساله الهدايا إليها ، وتلومه على تقصيه في إرسال الغنائم إليها وهاهو ذا يزيد يخلو إلى نفسه فيدندن قليلاً ، ثم هاهو ذا يستخرج من جيبه ورقة وقلماً ويخط إلى زوجته رسالة يشرح فيها ظروفه لزوجته التي يحبها يسألها فيها ألا تعجل ، وأن تتريث لأنه لم يجمع من المال ما يكفي لشراء هدايا لها :

ذري اللوم ، إن العيش ليس بدائم ولا تعجلي باللوم يا أم عاصم
فإن عجلت منك الملامة فاسمعي مقالة معني بحقك عالم
ولا تعذلينا في الهدية ، إنما تكون الهدايا من فضول المغانم

ونترك يزيد بن حبناء يتلطف مع زوجته في الرد ، ويذكر لها أنه يعرف حقوقها ويعني بها ، وأن الهدايا ستجيئها في وقتها عندما تزداد مغانمه .

وننتقل إلى شريح القاضي فنراه يلوم زوجته ، ويعيق بها وهو يربيها ويؤدبها فيشرح لها أن حبه لها لن يستمر إذا ما دأبت على استفزازه ، وينصحها أن تتركه وشأنه إذا رأته غاضباً ساخطاً لأن الحب والغضب يتصارعان إذا اجتمعا في القلب فينهزم الحب :

ومَن بَعدِهِ ما عانَقَ الباب سيّد له كل أبقار البلاد عَبيدُ
ولا جاز من تحتِ الجوائزِ متلُهُ وسرقينه مِسْكٌ يفوحُ وعودُ
خذي العفو مني ، تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين اغضب
فإني رأيت الحب في القلب والأسى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

ثم ننتقل إلى بيت شاعر يضطرب الرواة في ذكر اسمه فيذكرونه أحياناً باسم أبي دهبل الجمحي ، وأحياناً باسم أبي دعبل القريعي ونحن نختار الاسم الأول لأنه

أكثر شيوعاً ، ولعل الاختلاف مرجعه إلى التصحيف ، إن أبا دهبل هذا رجل رزقه الله زوجة غير صالحة ، تسومه العذاب ، وتنكد عليه حياته ، إنه منزو في ركم من أركان بيته يلفه حزن عميق ، وتلوح على خده دموع ندم غزار ، ما هذا ؟ إن أبا دهبل يبكي وإنه يدعو على نفسه ، يتمنى أنه لم يخطب زوجته تلك .

فهول يقول ليت بعيري ضل بي الطريق يوم ذهبت أخطبها وليتني سرت عشرة أيام في طريق مائل بعيد عنها ثم رجعت دون أن ألقاها أو أخطبها :

يا ليتني يوم ذهبت خاطبا ... لقاني الله طريقاً شاطبا

لا أمما منها ولا مقاربا ... حتى إذا ما سرت عشرا دائبا

فلنترك الرجل لحزنه ولنتسلل قبل أن يرانا فيفتك بنا ، وكفاه ما به من ندم وحسرة .

وإذا كان أبو دهبل يتحسر على زواجه ممن خطبها ، ويتمنى أن لو كان قد أخطأ الطريق ، فها نحن أولاء نرى رجلاً آخر يثار لنفسه من مخطوبته التي رفضته .

إنه حنظلة الخير بن أبي رهم بن حسان أحد بني الغوث من قبيلة طيء ويسيمه الرواة الراهب الطائي ، كان حنظلة قد غزا مع كسرى فهلك قومه ، وضاعت أموالهم ، فعاد خائباً ، وبعد وقت غير طويل تقدم امرأة فرفضته لأنه لا أهل له ولا مال فقال :

تلك ابنة العدوي قالت باطلاً ... أزرى بأهلك قلة الأموال

إنا لعمر أبيك يحمد ضيفنا ... ويسود سيدنا على الأقلال

غضبت علي أن اتصلت بطيء وأنا امرؤ من طيء الأجيال
أحلامنا تزن الجبال رزانة ويزيد جاهلنا عن الجهال

فهو يرد على اتهامها له ويزعم أنه من قوم تشكرهم ضيوفهم ، ويسود سادتهم ولو قلت أموالهم ، ويفخر بأنه من طيء التي تشبه الجبال في الثبات والرسوخ وتتصف بالحلم وهو علامة الحكمة والجهل (الظلم) وهو علامة القوة . وقد أشار الآمدي إلى أن الفرزدق سرق بيته المشهور :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جناً إذا ما نجهل

من البيت الأخير من أبيات حنظلة الطائي .

وممن خطبوا فرفضوا أيضاً فراصي بن عتبة الأزدي ، خطب ابنة عم له وكان يهواها فلم يزوجوه إياها ، وتزوجت من غيره ولكنه لم ييأس ، ولم يستطع أن ينسى حبه القديم ، فهو سينتظر عسى أن يطلقها زوجها ، أو يموت عنها فيتقدم إليها من جديد :

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها

ثم ننتقل إلى فريق آخر من الشعراء الذين أصاب حياتهم ألم بسبب زوجات آبائهم ، فهاهو ذا القلاخ بن زيد أحد بني عمرو ابن مالك ، تزوج أبوه بعد وفاة أمه امرأة مشاكسة تكيد الابن وتعمل على التفرقة بينه وبين أبيه ، فهو يتحسر على نفسه ويتوجه بالحديث عن أبيه وجهة المعاتبة واللوم ، فيذكره بأنه أقرب رحماً إليه من زوجته الجديدة ، فهو ابنه الذي يذود عنه إذا دهمه بأس ، ويقاتل عنه إذا

كانت الحرب ، أما زوجته فلن يكون شأنها إذا اشتد البأس إلا شأن سائر النساء البحث عن زينتها ولهوها :

يخصص زيد زوجه فيطيعها علي ، والواشي أغش وأكذب
فلو جاء يوم ينشف البأس ريقه لقاتلت عنه اليوم ، وهي تخضب
ولا يستوي يا زيد درج ومجمر وصدر سنان في الحروب محرب

وهذا الفرات بن أبي الخنساء الجشمي (من بنى تميم) خطب امرأة فرفضته ثم تزوجت أباه ، فهو يهزأ من اختيارها ويصف زوجها – أباه – بأنه عجوز أشمط شاب شعره وزاغ بصره ، ووهن عظمه ، فلا خير فيه لزوجة شابة ما زالت في ميعة الصبا ومقتبل العمر وشرخ الشباب :

يا أم علوان هلا كنت قلت لهم إذ يقرنونك : إني أبغض الشمطا
ما خير زوج فتاها لا يداعبها وإن تنقط ألا يبصر النقطا
ألم تري شيخكم شابت مفارقه واللحم عن عضده قد ضل واختلطا

أما الشعراء المحرومون الذي يحل بينهم وبين معشوقاتهم فظلوا يتباكون على حبهم القديم ، ويتسقطون أخبار محبوباتهم من بعيد ، فمنهم عثمان بن سالم أحد موالي الحجاز ، كان يعشق امرأة من بنى عمرو بن كلاب تسمى شعثاء وشاءت الأقدار أن تتزوج شعثاء هذه الفضل بن الربيع الوزير ، وذهبت مع زوجها إلى الحج وبينما هما عائدان مر العاشق القديم عثمان بن سالم فرأى محبوبته وقد ضربت لها

قبة فخمة يقوم حولها جنود غلاظ شداد فثارت كوامن أشجانه ، وتذكر ألمه القديم الجديد :

نــأت شــعثاء عنــك فمــا تــزور ولطــت دونهــا عنــك الســتور

فراحــت في القبــاب الحمــر خــود مبتلــــة لهــــا وجــــه نضــــير

وأمســـت دونهـــا حـــرس شـــديد وأبــــــواب مظــــــاهرة ودور

أتانـــا الـــبين مـــن شـــعثاء بغتـــا وذلـــك عنـــدنا حـــدث كـــبير

ومنهم عبد الله بن جحش الذي يبدو من حديث المؤرخين عنه أنه كان يعاني من زوجة مشاغبة ، تلومه إذا تأخر عن موعد وصوله إلى البيت ، ربما لأنها كانت تعلم أن له عشيقة أخرى تسمى ظمياء يزورها فيقضي معها وقتاً سعيداً يستروح فيه أنسام سعادة لا يراها في بيته . . فهو يقول :

خليلي من عوف عفا الله عنكما ألما بها إن كـان يرجى كلامه

فـإن مقـيلاً عنـد ظميـاء سـاعة لنـا خلـف مـن لومـة سـنلامه

وهذا رجل تشيع قصته في كتب التراث دون أن يذكر لنا المؤرخون شيئاً عن اسمه أو عصره تزوج امرأة جديدة ، فكانت جارية المرأة الجديدة تمر على بيت المرأة القديمة وتنشد قول الشاعر:

ومـا يستوي الثوبـان : ثـوب بـه البلى وثـوب بأيـدي البـائعين جديـد

فأرسلت المرأة القديمة جاريتها لتمر أمام بيت المرأة الجديدة لكي تنشد قول الشاعر :

نقل فؤدك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

ويروون أحياناً قصة مشابهة ، تمر فيها جارية المرأة الجديدة على بيت القديمة فتنشد :

وما يستوي الثوبان : ثوب به البلى وثوب بأيدي البائعين جديد

قالوا نكحت صغيرة فأجبتهم كم بين أشهى المطي إلى ما لم يركب

حبة لؤلؤ مثقوبة نظمت ، وحبة لؤلؤ لم تثقب

فتمر جارية القديمة ببيت الجديد فتنشد :

إن المطية لا يلذ ركوبها حتى تذلل بالزمام وتركب

والدر ليس بنافع أصحابه حتى يؤلف بالنظام ويثقب

وقد اجتهد الشعراء في بذل النصح للشباب الذي لم يتزوجوا ، فوضعوا لهم صفات المرأة التي تستحب خطبتها حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم ممن عاشوا حياة كئيبة خالية من السعادة فيروي لنا الأبشهي قول الشاعر :

صفات من يستحب الشرع خطبتها جلوتها الأولي الألباب مختصرا:

صبية ذات دين زانه أدب بكر ، ولود حكت في نفسها القمرا

غريبة لم تكن من أهل خاطبها تلك الصفات التي أجلو لمن نظرا

فيها أحاديث جاءت وهي ثابتة أحاط علماً بها من في العلوم قرا

ويروي لنا الأستاذ يحيى حقي هذه الطرفة القصصية الرائعة والتي نختتم بها المقال :

بعث امرؤ لأبي عزيزة مرة برسالة يبكي ويضحك ما بها

فيهـا يقـول أريـد منـك صـبية		حسناء معروف ليدكم أصلها
وأديبـــة وعفيفـــة ولطيفـــة		وكريمـــة وحليمـــة في عقلـــها
قد أحرزت في العلم غير شهادة		وعلـى النسـا تفـوق بفضـلها
وتكـون أيضـاً ذات مـال وافـر		تعطيـه من بعد الزواج لبعلها
وأريـد منهـا أن تكـون مطيعـة		أمـري فتتـبعني وتـترك أهلـها

فرد عليه أبو عزيزة قائلاً :

وافـى كتابـك سـيدي وقرأتـه		وعرفت هاتيك المطالب كلها
لو كنت أقدر أن أرى من تشتهي		طلقـت أم عزيـزة وأخـذتها

وهكذا يقدم لنا تراثنا الشعري العربي صوراً رائعة للإنسان الشاعر في حياته الخاصة ، سعيداً ، محروماً ، قلقاً ، معذباً ، حائراً ، عاشقاً ، صابراً . . . وهي سمة يتميز بها عطاء تراثنا المعطاء .

عشاق... في مواقف محرجة!!

يموج تراثنا الأدبي بقصص العشاق الشعراء الذين ملؤوا الدنيا نحيباً ، ومزقوا نياط القلب بشكاواهم ونواحهم ، ومفرداتهم الشعرية تزخر بمرادفات : البين والهجر والبعد والضنى والنوى والجوى . . إلخ .

ولكننا اليوم نستضيف طائفة خاصة من الشعراء الذين عبروا عن أشواقهم تعبيراً فطرياً عكس لنا روحاً مرحةً وظلا خفيفاً وفطرةً سمحةً يندر أن نجد أمثالها عند العشاق التقليديين اللهم إلا أن جادت قريحة أحدهم مرة بفكرة طريفة كالعباس بن الأحنف المتغزل الخفيف العفيف حين يقول :

هــل تــأذنون لصــبّ في زيــارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به ... عف الضمير ولكن فاسق النظر

وأول ضيوفنا شاعر لم يذكر لنا الرواة اسمه ، ولكنهم رووا لنا قوله :

فما نطفة من ماء مزن تنسمت ... رياح لأعلى متنه فهو قارس
بأطيب من فيها – وما ذقت طعمه ... ولكنني فيما ترى العين فارس!

فهو يوازن بين ريق محبوبته – الذي لم يذق طعمه – وبين سقيط الماء البارد الذي تشتهيه النفس ، ويعتمد في هذه الموازنة (التي تقوم على حاسة الذوق) على تحليلاته العميقة (التى تقوم على حاسة الرؤية) ! وهو يدعي الفروسية في الرؤية !!

وهذا شاعر آخر لا ندري أكانت حبيبته مخيفة الشكل إلى هذا الحد ؟ أم أنه كان ضعيف الشخصية إلى هذا الحد ؟ ذلك الحد الذي يجعله إذا خلا إلى نفسه يرتب الأحاديث وينسقها وينمقها ويدققها ويرققها حتى إذا التقى مع حبيبته

أصابه العي أو الوجوم أو الدهشة أو الخوف ، أو ذلك كله فراح يحدثها أحاديث عجيبة لا صلة لها بمشاعره :

أفكـــر مـــا أقـــول إذا التقينـــا فترتعد الفرائص حين تبدو

وأحكـــم دائبـــاً حجـــج المقـــال وأنطق حين أنطق بالمحال

ولعل محبوبته كانت شرطية !!

وهذا شاعر سيئ الحظ ، أوقعه حظه العاثر في حب امرأة غليظة القلب لا ترضى منه بظاهر العشق ، بل تريده أن يتريث حتى تظهر عليه علامات المرض الذي لا يرجى له برء ، والسقم الذي لا يؤمل له شفاء ، إنه يشكو إليها ما يلاقي من عذاب هواها فترد عليه في دلال شكواه وترجوه أن ينتظر حتى يذهب جلده وعظمه وحتى يعيبه الخرس .

وبعد ذلك ترضى عنه !! فيقول :

شكوت إليها الحب قالت : كذبتني ألست أرى الأجلاد منك كواسيا

رئيدك حتى يبتلي الشوق والهوى عظامك حتى يرتجعن بواديا

ويأخذك الوسواس من لوعة الهوى وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا شاعر يقدمه إلينا الجاحظ دون أن يذكر لنا اسمه ، شاعر فارغ العين مولع بتتبع النساء ومغازلتهن .

وقد أعجبته امرأة محتجبة الوجه فتبعها لما رأى من حسن جسمها ، فلما أسفرت عن وجهها (فإذا هي غول !!) .

كما يقول الجاحظ ، قفز الشاعر هارباً لما رأى من بشاعة وجهها وقال :

وأظهرهـــا ربـــي بمـــن وقـــدرة على ، ولولا ذلك مت من الكرب
فلما بدت سبحت من قبح وجهها وقلت لها : الساحور خير من الكلب

والساجور : خشبة تعلق في عنق الكلب ، يعني أن مرآها مغطاة خدعه عن حقيقتها ، وأن ما ظهر منها خير مما بطن .

وهذا شاعر يضرب به المثل في الحمق والغفلة يقول : أنه سيظل يعشق حبيبته ما عاش ، فإذا أحس بدنو أجله يعطي تفويضاً لعاشق آخر يكمل مهمته التاريخية وهي العشق ، والعشق فقط ! فيقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدي!!

وهذا شاعر مضطرب إذا التقى بحبيبته وخلال لهما الجو لم يفض لها بما يعتلج في نفسه من شوق ، ولم يبثها ما يعتمل في قلبه من حنين ، وإنما يشكو إليها ألماً يجده في كبده !! وهذا الألم سببه خوفه من الفراق !! فيقول :

ولما خلونا واطمأنت بنا النوى وعاد لنا العيش الذي كنت أعرف
أخذت بكفي كفها فوضعتها على كبد من خشية البين ترتجف!!

والمألوف عند الشعراء العشاق أن أكثرهم إذا انصرفت عنه محبوبته بكى واشتكى وذرف الدموع غزاراً على ذكريات حبه ، وما يزال يستشفع ويسترضي ويستلين قلب محبوبته عساها ترجع إليه . وبعضهم تتركه محبوبته وتتزوج غيره بعد أن تيأس منه وتشك في صدق عاطفته فيظل يبكي حبه القديم أو يعرض عن الزواج بغير محبوبته ، أو ينتظر طلاقها أو موت زوجها ، كذلك الذي تركته حبيبته وتزوجت غيره فقال مخاطباً نفسه :

تــربص بهــا ريــب المنــون لعلــها تطلق يوماً أو يموت حليلها

أما الذين يقفون مع المحبوب وقفة حازمة فما أقلهم من الشعراء العشاق فمنهم الذي يقول :

سلام عليها ما أحبت سلامنا فإن كرهته ، فالسلام على أخرى!!

وهذا شاعر من الأعراب ملته محبوبته وتركته غير عابئة بحبه، وهجرته هجراً غير جميل ، ولعلها بعثت إليه تخبره بأنها تركته سأماً ومللاً ورأت أو وراءها أوسع من أمامها ، أي أن لها بديلاً خير من عاشقها الذي يقف " محلك سر " فبعث إليها يقول :

فــإن تشــبعي منــا وتــرزي ملالــة فــنحن – وبيــت الله – أورى وأشبع

وإن تجدي مــا خلــف ظهرك واسعاً فمــا خلفنــا مــن سائر الأرض أوســع

وإن تنقضي العهد الذي كـان بيننا فــنحن لمــا ضيعــت أنسـى وأضيع !!

وهذا شاعر آخر أشد غلظة من صاحبه ، وأعظم منه جفاء وسوء خلق ، فهو يدعو على محبوبته ويلعن حبه لها في لغة غليظة جافية تنم عن غيظ دفين ونفس سئمة فيقول :

أميطي الهوى عمن قلاك وعرضي لغيري به ، واسترتي الله في الستر

فلو كنت لي كفاً إذن لقطعتها ولـو كنـت لي أذنـاً رميتك بـالوقر

ولـو كنـت لي عينـاً إذن لفقأتها ولـو كنـت لي قلباً نزعتك من صدري

وقد يكون الشاعر عاشقاً وفياً ولكن أقداره تقذف به بعيداً عن محبوبته فيضرب في الأرض يبتغي من فضل الله وما أن تمر عليه ليالٍ معدوداتٍ حتى يشفق

على نفسه الوحدة والغربة وقسوة الفراق ، فيكتب ويكتب ويظل ينتظر الجواب بلا جدوى . . وهذا واحد من هؤلاء ترك حبيبته وكتب إليها يبثها شوقه وحنينه وندمه على فراقها ويبدو أنها لم تعبأ به فقال :

أترحل عن حبيبك ثم تبكي ... عليه ؟ فمن دعاك إلى الفراق؟

كأنك لم تذق للبين طعما ... فتعلم أنه مر المذاق

أقم وانعم بطول القرب منه ... ولا ترحل وتكتب باشتياق

فما اعتاض المفارق من حبيبٍ ... ولو يعطى الشآم مع العراق

وهذا الحطيئة يهم بالسفر ويهيئ له أصحابه دابته وزاده ثم يخاطب زوجه في غلظة ليست غريبة على طبعه المعروف فيقول :

عدي السنين – إذا رحلت – لرحلتي ... ودعي الشهور فإنهن قصار..!!

فتقول له مستعطفة محذرة :

اذكر تحنننا إليك وشوقنا ... واذكر بناتك إنهن صغار...!!

فتدمع عيناه ، ويرق قلبه – على مافيه من جفوة – ويقول : حطوا ، فوالله لا رحلت أبداً .

وهذا زهير بن أبي سلمى الذي قضى عمره يتغزل في محبوبته أم أوفى ، يكتب عليه السفر أو يكتب على أم أوفى ، فينظر في أمره فيرى أنه متأثر بهذا الفراق ، ويتسقط أخبار أم أوفى ، فلا يرى فيها تأثراً بفراقه فيشكو :

لعمرك والخطوب مغيرات ... وفي طول المعاشرة التقالي

لقد باليت مظعن أم أوفى ... ولكن أم أوفى ما تبالي

وروي أن بشر بن مروان كان في معسكر له بالبصرة قرب حدودها فبلغه أن كثيراً من الجنود يتركون المعسكر ويترددون على المدينة فأصدر أوامره بمعاقبة من يوجد في المدينة من الجنود عقاباً غريباً ، وهو أن تسمر يداه بمسامير ، وكان في الجنود فتى عاشق ولهان لم يستطع أن يزور حبيبته فكتب إليها يقول :

لولا مخافة بشر أو عقوبته وأن تسمر في كفي مسمار
إذا لعطلت ثغري ثم زرتكم إن المحب إذا ما اشتاق زوار

(عطلت ثغري : أي تركت الثغر وهو مكان تجمع الجنود على الحدود) .

فكتبت إليه محبوبته تقول :

ليس المحب الذي يخشى العقاب ولو كانت عقوبته في كيه النار
إن المحب الذي لا عيش ينفعه أو يستقر ومن يهواه في الدار

فهرب الجندي العاشق ونزل البصرة ، فلما أمسكه الحرس جاءوا به إلى بشر فسأله عن سبب هروبه فقال هذه الأبيات ودفعها إليه ، فقرأها بشر وضحك ثم أمر منادياً ينادي :

من أحب المقام في المعسكر فليقم ، ومن أحب دخول البصرة فليدخل .

وهذا عاشق أحمق يشكو بثه وحزنه إلى أحد العلماء فيقول : إني صنعت شعراً وأريد عرضه عليك ، فيقول له : هات ما عندك ، فينشد :

إن جسمي سل من غير مرض وفؤادي لجوى الحزن غرض

فيقول له العالم : أحسنت ، ثم ماذا ؟ فيكمل :

كجـــراب كـــان فيـــه جـــبن   دخـل الفـأر عليـه فقـرض

فيضحك العالم من حمقه وسذاجته

ومن الشعراء من يستعظم دلال محبوبته فيعاتبها في لغة ساذجة تعبر عن فطرة نقية ويختار صورة بسيطة من بيئته التى يعيش فيها أو يعبر عن ضيقه بمحبوبته تعبيراً فيه صراحة ومباشرة مقبولتان لظرفهما .

فهذا شاعر هجرته حبيبته فهو يعاتبها لأنها لم تبعث له(إنذاراً) حتى يتمكن من الاستعداد (لإخلاء الطرف) من عهدته فيقول :

أحـين ملكـتني أعرضـت عنـى؟   كـأني قـد قتلـت لكـم قتـيلا

فهـلا إذ هممـت بصـرم حبلـي   جعلت إلى التصبر لي سبيلا؟

وهذا شاعر يعاتب حبيبته في حوار داخلي مع نفسه ، فهو يتحدث إلى نفسه شاكياً إليها محبوبته التي أطعمته في الوصال فظن أنها رضيت به وقبلته عاشقاً ولكنها لم تلبث أن خذلته ونسيت حبه ، فلما عاتبها طلبت منه أن يتركها وشأنها لأنها تريد العفاف ، ولعلها كانت تريد أن تتزوجه أو تتخلص منه لتفرغ لشؤونها ، فقال :

أطمعتنى فقلـت أخـذاً بكفـي   ثـم عـادت مـن بعـد ذاك بخلـف

زعمـــت أنهـــا تريـــد عفافـــاً   قلــت : ردي علــى قلــبي وعفــي

وهذا شاعر يعاتب حبيبته في حوار داخلي مع نفسه ، فهو يتحدث إلى نفسه شاكياً إليها محبوبته التي أطعمته في الوصال فظن أنها رضيت به حبيبا وقبلته

عاشقاً ولكنها لم تلبث أن خذلته ونسيت حبه ، فلما عاتبها طلبت منه أن يتركها وشأنها لأنها تريد العفاف ، ولعلها كانت تريد أن تتزوجه أو تتخلص منه لتفرغ لشؤونها ، فقال :

أطمعتـْني فقلـت أخـذاً بكفي ثـم عـادت مـن بعـد ذاك بخلـف
زعمــتْ أنهــا تريــد عفافــاً قلــت: ردي علـيّ قلـبي وعِفّـي !

وهذا شاعر فاته قطار الزواج فيما يبدو ، حتى شاب شعره ، وتقدمت به السن ، فصبغ شعره وتقدم خاطبا شاعرة تدعى أم العلاء بنت يوسف بن حور المجلسي الحجازية، ذكرها صاحب المغرب، وقال: من أهل المائة الخامسة، فكتبت إلى ذلك الخاطب الأشيب تسفهه :

يــا صــبح لا تبــد إلى جــنح والليــل لا يبقــى مــع الصــبحِ
الشـيب لا يخـدع فيـه الصـبا بحيلــة فــاسمع إلى نصــحي
فـلا تكـن أجهـل مـن في الـورى تبيـت في الجهـل كمـا تضـحي!!

وكصنيع هذه الشاعرة ، صنعت شاعرة أخرى هي عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية .

قال أبو حيان في المقتبس لم يكن في زماننا في حرائر الأندلس من يعدلها علماً وأدباً وشعراً .

وفصاحة، تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة!! وكانت حسنة الخط .

تكتب المصاحف ، وقد ماتت عذراء سنة أربعمائة. لأنها لم ترض أحدا ممن خطبوها ،

وخطبها ذات مرة بعض الشعراء ممن لم ترضه فكتبت إليه كما كتبت سابقتها تزجره زجرا عنيفا فقالت في غير رحمة ولا شفقة بهذا الخاطب الولهان إنها لا تحب أن تتزوج مطلقا ، ولو أرادت لاختارت من هو خير من هذا الخاطب التعس :

أنا لبوة لكنني لا أرتضي برقى مناخاً طول دهري من أحدْ

ولو أنني أختار ذلك لم أجب كلباً وكم غلّقت سمعي عن أسدْ

ويبدو أن المرأة إذا اجتمع لها الجمال والأدب والشعر ، صارت أكثر قسوة من غيرها كما رأينا في المثالين السابقين ، وإذا شئنا أن نعززهما بثالث تذكرنا موقف الشاعرة عائشة الإسكندرانية المعروفة بزهرة الأدب!! قال ابن سعيد: كان مجلسها يعرف ب"الروض" فقد قالت تخاطب شاعرا رقيقا [رومانسيا !!] بعث إليها بشعر ذكر فيه أن قلبه من الحب يتقلب في جمر الغضا.فكتبت إليه تسخر من مشاعره ، وتخشى على رواد مجلسها من الأدباء والأديبات من حر نار أشعار ذلك العاشق المسكين فنصحته أن يحتفظ لنفسه بمشاعره تلك الساخنة ، وقالت له :

إذا كان قلبك ذا صاحبٍ ... فلا تبعثنّ بأسرارهِ !!!!!

فإني لأشفق من نارهِ على " الروض" أو بعض أزهارهِ

وهذا شاعر عصبي ابتلى بعشق امرأة عصبية فهو يشكو وهي تشكو وهو يجادلها وهي تجادله ، ويبدو أنهما اتفقا على ألا يتفقا فهو يقول :

شكوت ، فقالت : كل هذا تبرماً بحبى ؟ أراح الله قلبك من حبى

فلما كتمت الحب قالت : لشد ما صبرت وما هذا بفعل شجي القلب

فشكواي تؤذيها وعتبي يسوءها وتغضب من بعدي وتغضب من قربي

فيا قوم هل من حيلة تعرفونها؟ أشيروا بها واستوجبوا الأجر في الصدِ

ونحن لا نجد له لا حيلة ولا حولاً ، ولا نريد من وراء مشورته أجراً ولا طولاً مادام غبياً ، لا يرى في هذه الدنيا الواسعة الآفاق إلا هذه المرأة الضيقة الأفق . . فلا حيلة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هَؤُلاء الشُّعَرَاءُ .. وحِيَلُهُم الظَّرِيفة !!

كثيراً ما يقع الشعراء في مآزق بسبب طول ألسنتهم وسلاطتها، فيعرِّضُون أنفسهم لما لا يطيقون من البلاء والمكروه.

وهنا نعرض بعض مواقفهم التي لجأوا فيها إلى الحيلة والذكاء وخفة الظل هروباً من العقوبة ، أو تخلصاً من موقف محرج ، أو تلطفاً في التعبير، أو إظهاراً لما حباهم اللّه تعالى إياه من ذكاء وفطنة، أو رغبة في قضاء مصلحة دون أن يفطن لذلك من يخشون بأسه.

ومن هذا النوع الأخير ما روي عن عاشقين شاعرين متعاصريْن هما: جميل بن معمر، وكثيّر بن عبد الرحمن .

فقد اشتاق جميل إلى بثينة بعد أن حيل بينه وبينها ، فقصد صديقه كثيّراً .

وقال له: "إن بثينة تقيم مع عمها، وحاشية عمها كثيرة. فاذهب إليها وخُذ لي منها موعداً نلتقي فيه". فأطرق كثيّر وهو يفكر فيما قد يناله من أذًى على أيدي حاشية عمها، وبعد تفكير عميقٍ اهتدى إلى حيلة يلبى بها رغبة صاحبه جميل .

فسأل جميلاً: متى كان آخر عهدك بها؟

قال : يوم كذا .

قال : وأين كان اللقاء بينكما؟

قال : في "وادي الدوم".

وقد أصاب ثوبها شيء فغسلته يومذاك.

فأتى كثيِّر إلى حي بثينة، فأخذ يتعرف إليهم، ويحادثهم، حتى انتهى إلى مجلس عمها قريباً من خيمتها فأخذ يحادثه. ثم رفع صوته وقال لعمها: سأسمعك أبياتاً قلتها في محبوبتي "عزة" حضرتنى الآن.

قال: هاتها.

فأنشد بصوتٍ عالٍ لكي تسمعه بثينة .

قائلا :

بأن تجعلي بيني وبينك موعداً وأن تأمرينى ما الذي فيه أفعلْ

أما تذكرين العهد يوم لقيتكم بأسفلِ وادي الدوم، والثوبُ يُغسَلْ ؟

ففطنت "بثينة" إلى أنه يقصدها .

فصاحت بصوت يسمعه عمها: اخسأْ .

فصاح عمها : ما أخسأت؟

قالت : كلباً يعترينا ليلاً ثم رأيته الساعة !! فرجع كثيّر إلى جميل .

وقال : انتظرها الليلة فإنها ذكرت الليل !!.

وهذا شاعرٌ آخر نزل ضيفاً على قومٍ بخلاء فمكث فيهم ثلاثة أيام يعاني جوعاً شديداً.

فلقيه بعض أصحابه فسأله عن حاله مع مضيفيه البخلاء، فقال له مواربًا: كيف أصبحت؟

فقال الشاعر :

وصامتْ ثلاثاً ناقتي بفنائهم ولو مكثتْ فيهم ثلاثاً لصلَّتِ!!

فهو يقول : إن ناقته لم تعتلف علفاً لثلاثة أيام ، ولو مكثت ثلاثة أيام أخر فسوف تهلك وتموت !! [وصلّت هنا معناها: تلفت وماتت، وفيها تورية لمقابلتها مع كلمة "صامت" من قولهم: صلّ اللحمُ، وأصَلَّ: إذا أنتن وهو نيء . وحمّ وأحم : إذا انتن وهو مطبوخ]. فخرج الشاعر بهذه الحيلة من الإحراج مع هؤلاء البخلاء.

وحكى الربيع قال : حججت مع أبي جعفر المنصور، فلما دخل المدينة المنورة أمرني أن أبحث له عن رجل يسايره ويريه شوارع المدينة ومنازلها، فوجدت رجلاً ظريفاً منقطعاً ، فأحضرته له. فسار معه وكلما سأله المنصور عن شيء أجابه وحدثه بما يطربه.

فقال له المنصور: أين منزلك؟

قال : لا منزل لي ولا زوجة ولا ولد ولا جارية!!.

قال له : فمن أنت؟

قال : رجلٌ مغمورٌ لا تبلغك والله معرفته .

قال : قد أمرت لك بأربعة آلاف درهم!! فرمى نفسه فقبّل رجليه.

ثم خاف الرجل أن ينسى أمير المؤمنين ما وعده به ، فطلب من الربيع أن يتنجز الوعد من أمير المؤمنين .

قال الربيع: فقلت له: إنه راحل غداً فابحث لنفسك عن حيلة.

وفي اليوم التالي ، ركب المنصور فدعا بالرجل ثانياً ليحدثه، فبينما هما يسيران إذ مرّا على موضع .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي ذكره الشاعر الأحوص فلم يفطن المنصور لما يقصده الرجل .

وقال له : أنشدني الشعر. فخاف الرجل لأن القصيدة كانت مدحاً لعمر بن عبد العزيز، وهو أموي، والمنصور عباسي .

فقال : إنه يمدح عمر بن عبدالعزيز يا أمير المؤمنين؟! قال: وإن كان .

فأنشده الرجل :

يا بيت عاتكة الذي أتعزّلُ   حذر العدا ، وبه الفؤاد موكَّلُ

إنّي لأمنحك الصدود وإنني   -قسماً- إليك مع الصدود لأمْيَلُ

إلى أن بلغ قوله :

وأراك تفعل ما تقولُ وبعضُهم   مذق اللسان يقولُ مَا لا يفعلُ

فضحك الخليفة وفهم حيلة الرجل ، وأمر الربيع أن ينفذ له الوعد .

وروي أن رجلاً كان يختلف إلى الخليل بن أحمد ليدرس عليه علم العَرُوض وكان رجلاً بطيء الفهم ، غبياً ، فتبرّم منه الخليل ، ولكنه كره أن يحرجه ، فقال له ذات يوم : قطّع قول القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

ففهم الرجل غرض شيخه وانقطع عن درس العروض .

فقال الخليل : "ما رأيت أفطن منه على ما فيه من بَلَهٍ !!".

ويُحكى أن ابن دُريد تشوق لزيارة بغداد من كثرة إغراء أصحابه وتشجيعهم إياه على زيارتها.

فلما زارها لم تعجبه، لما رأى من أخلاق أهلها السيئة. فلما سأله بعض أصحابه عن رأيه فيها، أراد أن يعرّفهم حقيقة شعوره من غير أن يستفز أهل بغداد فيفتكوا به.

فقال لهم :

سمعتُ بذكرِ النّاسِ هنداً، ولم أَزَلْ   أخـا صَبْوةٍ، حتى نظرتُ إلى هِـندِ

فلمـا أرانـي اللّه هنـداً وزرتُـها   تمنيـتُ أن أزدادُ بُـعْدًا على بُعـدِ!!

وقيل: إن شاعراً كان يحترف الغناء، فزار يوماً بعض أصحابه، وكانوا قد انتهوا من تناول طعام الغداء. فطلبوا منه أن يشاركهم الشراب فشرب معهم – وهو جائع - ثم طلبوا منه أن يغنى لهم.

فما زال يغنى وهو يكابد مكروهاً عظيماً من الجوع فلما فاض به الكيل غنى لهم:

خليلـــيَّ داويـــتما ظاهـــراً   فمــن ذا يــداوي جــوًى باطِنــا؟

ففطن صاحب الدار إلى قصده وأمر له بطعام عاجل ..

وروي أن الفرزدق دخل على بلال بن أبي بردة، فوجده يذمّ في قبيلة مضر ويمدح اليمن .

فقال الفرزدق : إن فضل اليمن لا يستطيع إنكاره أحد لا سيما إذا عرف ما فعله أبو موسى مع رسول اللّه ﷺ. فقال بلال وقد شعر بالخوف من لسان الفرزدق:

"إن فضائل أبي موسى كثيرة، فأيها تعنى؟".

فقال الفرزدق : إن رسول الله ﷺ غَلَبه دمه في بعض أسفاره فحجمه أبو موسى .

فقال بلال : "أجل .

لقد فعل ذلك برسول الله ﷺ ولم يفعله بأحدٍ قبله ولا بعده"–أي أنه لا يحترف الحجامة لأن الفرزدق أراد تعييره بهذه الحرفة– فقال الفرزدق : "إن الشيخ [يعنى أبا موسى] كان أتقى لله وأعلم به من أن يُقدم على حجامه نبيه ﷺ بغير حذق"!! [أي بدون خبرة سابقة بهذه الصنعة] فسكت بلال مفحما ، وعدها العلماء من جوابات الفرزدق المسكتة التي اشتهر بها!!.

وقيل : التقى رجلان أحدهما من بني تميم والآخر من بني نمير، في مجلس من المجالس ، فخاضا مع الخائضين في ذلك المجلس، حتى قال التميمي : "يعجبنى من الجوارح: البازيّ".

فرد النميرى في الحال قائلا : "لا سيما إذا كان يصيد القطاة (الحمامة).

فضحك الجالسون إذ فطنوا إلى ما قصده الرجلان.

فقد أراد التميمي قول الشاعر جرير:

أنـــا البـــازي المطـلُ علــى نــُميرٍ أُتِحْتُ من السماء – لها– انصباباً

وأراد النميرى قول الطرماح :

تميمٌ بطرق اللـؤمِ أهـدى مـن القَطَـا ولو سَلَكتْ طُرُقَ المكارمِ ضَلَّتِ!

وقد يتخذ الشعراء من إعاقاتهم البدنية حيلاً لطيفة كما فعل الشاعر الأحول أبوحفص الشطرنجي حين قال :

حمدتُ إلهي إذ بُلِيت بحبّها على حَولٍ يُغني عن النَّظَرِ الشّذرِ
نظرتُ إليها، والرقيب يظنني نظرتُ إليه، فاسترحتَ من العذرِ

ولما أصيب الشاعر رجاء بن الوليد الأصفهاني بضعف السمع الذي يكاد يصل إلى الصمم ، كان يتحين الفرص للحديث مع محبوبته لكي تلصق وجهها بوجهه وترفع صوتها حتى يسمع ، فأخذ قول أبي حفص الشطرنجي وغيّر فيه ، فقال مستخدماً صيغة المذكّر:

حمدتُ إلهي إذ بُلِيت بحبّه على طَرَشٍ يُشفي ويُغنى عن العُذْرِ
إذا ما أراد السرّ ألصق خَده بخدي اضطراراً ليس يدري الذي أدري!!

أي : هو في حاله يتكلم ، وأنا في حالٍ أخرى من الصبابة والوله والسعادة لالتصاق الخدين .!!

ولما ورد الأحنف على معاوية، كان في مجلسه عمرو بن العاص، فقال عمرو لمعاوية : أتأذن لي أن أمازح الأحنف؟

قال : لا تفعلْ فإنه جاهز الجواب .

فأبى عمرو إلا أن يمازحه.

فقال : يا أحنف ما معنى قول الشاعر يزيد بن الصعق الكلابي :

إذا ما ماتَ ميْتٌ من تميمٍ وسرّك أن يعيش فجيءْ بزَدِ
بخبزٍ، أو بسمنٍ ، أو بتمرٍ أو الشيء الملفّف فِي البِجادِ

فقال : أراد السخينة (لون من الطعام) يرحمك اللّٰه!!.

فضحك معاوية وقال لعمرو بن العاص : دُقْ عَقَق!!.

والسخينة طعام كانت تُعيّر به قريش . هجاها به كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه ، وقبله خداش بن زهير العامري. وغيرهما من الشعراء.

وأما قول معاوية (دُقْ عَقَقْ!) فهو معدول عن قولهم :(يا عاقّ) ، أي : تحمل نتيجة اختيارك لمازحة نهيتك عنها فعققتني .

وهاهوذا الأحنف قد عيّرك بما يُخجلك .!!

وذكر أبو الحسن الماوردي : أن أبا جعفر المنصور بلغه عن جماعة من كتاب دواوينه أنهم زوروا فيها وغيروا ، فأمر بإحضارهم، تمهيدا لمحاسبتهم وبتأديبهم ، فقال كاتب شاعر شاب منهم معتذرا عما جنوه :

أطـال الله عمـرك في صـلاحٍ ... وعـزٍ يـا أمـير المؤمنينـا

بعفـوك نستجير فـإن تجرنـا ... فإنّـك عصـمةٌ للعالمينـا

ونحـن الكـاتبون وقـد أسـأنا ... فهبنـا للكـرام الكاتبينـا

فأمر بتخليتهم ، ووصل هذا الشاعر الفتى وأحسن إليه.

وقريب من هذه الحيلة أعني التوسل بالشعر لاستعطاف الحكام ماروه من أن أبا نواس حبس مرة في عهد الرشيد فأرسل إليه يستعطفه قائلا :

بعدلك بل بجودك عذت لا بل ... بحبّـك يـا أمـير المؤمنينـا

فـلا يتعـدّرنّ علـيّ عفـوٌ ... وسـعت بـه جميـع العالمينـا

فـإنّي لم أخنـك بظهـر غيـبٍ ... ولا حـدّثت نفسـي أن أخونـا

بـراك الله للإسـلام عـزاً ... وحصـناً دون بيضـته حصـينا

فقد أوهنت أهل الشّرك حتى ... تـركتهم ومـا يترمرمونـا

تــزورهم بنفســك كــلّ عــامٍ   زيـــارة واصـــلين لقاطعينـــا
ولـو شئت استرحت إلى نعيمٍ   وقاسـى الأمـر دونـك آخرونـا
فشـفّع حسـن وجهك في أسيرٍ   يـدين بحبّـك الـرّحمن دينـا
إذا مـا الهـون حـلّ بمسـتجيرٍ   فلـيس لجـار بيتـك أن يهونـا

فأطلقه الرشيد بعد أن سمع الأبيات وتشفع له وزيره الفضل بن يحيى، ثم تكرر حبسه في عهد ابنه الخليفة الأمين ، ففعل معه كما فعل مع أبيه الرشيد وكتب إليه يستعطفه :

تـذكّر أمـين الله والعهـد يـذكر   مقـامي وإنشـاديك والنـاس حضّـر
ونثـري عليك الـدّرّ يـا درّ هاشمٍ   فمـن ذا رأى درّاً علـى الـدرّ ينثـر
مضت لي شهورٌ مذ حبست ثلاثةٌ   كأنّـي قـد أذنبـت مـا لـيس يغفـر
فإن كنت لم أُذنب ففيم تعنّتي   وإن كنـت ذا ذنـبٍ فعفـوك أكـبر

وروى الرياشي عن الأصمعي أنه قال : مدح نصيب بن رباح عبد الله بن جعفر ، فأمر له بمال كثير ، وكسوة شريفة ، ورواحل موقرة براً وتمراً.

فقيل له : أتفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود؟

قال : أما لئن كان عبداً ، إن شعره فيَ لحر، ولئن كان أسود إن ثناءه لأبيض، وإنما أخذ مالاً يفنى ، وثياباً تبلى ، ورواحل تنضى، وأعطى مديحاً يروى ، وثناء يبقى .

وذكروا عن أبي النجم العجلي مأزقا عنيفا وقع فيه أبو النجم ثم احتال بذكائه وخفة ظله حتى تخاص منه ، وذلك أنه أنشد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملكً شعره الذي يقول فيه:

الحمـــــــــد لله الوهـــــــــوب المجـــــــــزل

وهو من أجود شعره، حتى انتهى إلى قوله:

والشـــــمس في الجـــــو كعـــــين الأحـــــول

وكان هشام أحول ، فأغضبه ذلك ، فأمر به فطرد .

فأمل أبو النجم رجعته ، فكان يأوي إلى المسجد. فأرق هشام ذات ليلة فقال لحاجبه : ابغنى رجلاً عربياً فصيحاً يحدثنى وينشدنى .

فطلب له ما سأل ، فوجد أبا النجم ، وهو لا يعرف موقف الخليفة منه ، فأتى به.

فلما دخل عليه قال : أين كنت منذ أقصيناك؟

قال : حيث ألفاني رسولك .

قال : فمن كان يعولك ؟

قال : كنت عند رجلين أتغدى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر.

قال : فما لك من الولد؟

قال : ابنتان .

قال : أزوجتهما ؟

قال : زوجت إحداهما .

قال : فبم أوصيتها ليلة أهديتها؟

قال : قلت لها :

سبى الحماة وابهتي عليها وإن أبت فازلفي إليها

ثم اقرعي بالعود مرفقيها وجددي الخلف به عليها

قال : هل أوصيتها بعد هذا ؟

قال : نعم :

أوصيت من برة قلباً برا بالكلب خيراً والحماة شرا

لا تسأمي خنقاً لها وجرا والحي عميهم بشر طرا

وإن كسوك ذهباً ودرا حتى يرى حلو الحياة مرا

قال هشام : ما هكذا أوصى يعقوب ولده .

قال أبو النجم : ولا أنا كيعقوب ولا ولدي كولده .

قال : فما حال الأخرى ؟

قال : هي ظلامة التي أقول فيها :

كان ظلامة أخت شيبان يتيمة وإلداها حيان

الرأس قمل كله وصئبان وليس في الرجلين إلا خطيان

فهي التي يذعر منها الشيطان

قال هشام لحاجبه : ما فعلت بالدنانير التي أمرتك بقبضها؟ قال : هي عندي وهي خمسمائة دينار.

قال له: ادفعها لأبي النجم ليجعلها في رجلي ظلامة مكان الخيطين.!!

هؤلاء الشعراء .. وألقابهم الحيوانية!!!

من الطرائف الغريبة التي يزخر بها تراثنا الأدبي القديم، تلك الأسماء والكنى والألقاب العجيبة التي عرف بها بعض أعلام هذا التراث من قضاة ووزراء وكتاب وشعراء.

ومن تلك الألقاب والأسماء العربية نستضيف في السطور القادمة ستةً من الشعراء ذاعت شهرتهم بأسماء لها طابع حيواني!! فمنهم من تأذَّى منها، ومنهم من أحسن التعايش معها، وصنع مادةً فكاهية من غرابتها.

أو... لعلها كانت وراء شهرته. وهؤلاء الضيوف هم – ولا مؤاخذة أيها القراء:-

١. ابن الفرس.
٢. ابن الحمارة.
٣. ابن خروف.
٤. أبو العجل.
٥. أنف الكلب.
٦. جحشويه.

فهيا بنا نتجول في حدائق التراث، لنرى ما ذا حملت لنا كتب الطبقات والتراجم من أخبار هؤلاء وأشعارهم.

١. ابن الفرس:

ابن الفرس من كبار علماء الأندلس؛ فقد كان قاضيًا شهيرًا في غرناطة واسمه الحقيقي عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم بن أحمد الخزرجي المالكي

تفقه على والده وجده، في علمي أصول الدين والفقه، وله كتاب في "أحكام القرآن" وصفه الصفدي في "الوافي بالوفيات" بأنه "من أحسن ما يصنع في ذلك".

وقد تُوُفِّيَ ابن الفرس سنة سبع وتسعين وخمسمائة للهجرة (٥٩٧ هـ).

وكانت عادة القادة العرب المسلمين قديمًا أنهم إذا قتلوا رأسًا من رؤوس الكفر من أعدائهم، علقوا رأسه على سن رمح ، وطيف بها ليراها الناس فتشتفي صدورهم من قادة أعداء الدين .

وقد حدث مثل هذا الصنيع في عصر ابن الفرس، فقال يصف رأس عدو من الأعداء الذين قتلهم زعماء عصره بالأندلس :

بعثوا براس "العلج" عنه مخبِّرًا ... يا من رأى ميْتًا يقول ويُخبِرُ

فَسَما به متنْ القناةِ كواعظٍ ... يسمو به بين المعاشر مِنبَرُ

وكأنه قد أثمرتْه قنائه ... يا من رأى غصنًا برأسٍ يثمرُ

على أن كتب التراث لا تدلنا على سر تلقيبه بهذا اللقب الغريب ، مما يجعلنا نظن أنه لم يكن المراد به الذم ، كما هو الحال في ألقاب أخرى كثيرة ، بل لعله اسم جد من جدوده ، على عادة العرب في التسمية بأسماء الحيوانات ، ككلب ، وأنف الناقة وغيرهما ، من غير تأثم ولا شعور بالحرج.

٢. ابن الحمارة :

منح التاريخ هذا اللقب العجيب لرجل موهوب ذي شخصية فذة ، برع في الموسيقى ، وبرع في الشعر ، وكان له اهتمام بالفلسفة فقد تتلمذ لفيلسوف الأندلس الشهير ابن باجة.

ثمَّ هو فوق هذا كله: رجل دولة معروف فقد تولى الوزارة. وترجم له ابن سعيد في "المغرب في حلى المغرب" وترجم له المقري في "نفح الطيب" وغيرهما.

والذين ترجموا له لم يذكروا لنا سنة مولده ولا سنة وفاته، ولكنهم في الغالب اتفقوا على أنه كان ذا شعر جيد .

كما اتفقوا على أنه حمل هذا اللقب الغريب ، وإن كانوا لم يشرحوا لنا سر هذا اللقب .

ويتميز شعر ابن الحمارة بالرقة والعذوبة والسلاسة ، ورقة القافية .

فمن ذلك قوله يصف آلام الغربة والشوق إلى الأحبة:

ألا يـا ليـلُ: هـل لـك مـن صباح	وهـل لأسـير نجمـك مـن سـراح
ألا يـا ليـلُ: طُلـت علـيَّ حتـى	كأنـك قـد خُلقـت بـلا صـباح
فهـل باتـت فطيمـةُ فيـك تشـكو	كمـا أشـكو اغترابـي وانتزاحـي
أردد زفـرة المَضـنى كـأني	جـريح أنَّ مـن ألم الجـراح
يقلـبني الأسـى جنبًـا لجنْـبٍ	كـأني فـوق أطـراف الرمـاح

فهو يشخص الليل ، ويخاطبه راجيًا أن ينزاح عنه ، ويأذن بطلوع النهار رحمةً بهذا العاشق الدنف المضنى الذي يبيت أسيرًا للنجوم في حركتها البطيئة ، وتتلاحق أنفاسه الحرَّى كأنها آهات جريح مطعون .

ثمَّ يترك الليل وخطابه ، ويتجه إلى محبوبته فطيمة التى يكنِّيها بأم عمرو فيصف لها لهفته إلى لقائها ، وكيف أنه تجشم مشاق السفر ليزورها، فلم يستطع

رؤيتها ؛ لأن أهل بلدتها أنكروه، فعاش بينها غريبًا ، مأزومًا ، وحيدًا ، يتجرع مرارة الغربة ومرارة الحرمان :

دعاني الحب نحوك أمَّ عمرو فطرتُ إليك خفَّاق الجناح
ولو أسطيع من طربٍ وشوق ركبتُ إليك أجنحة الرياح
أحبتنا رويدكم علينا فقد جمح الهوى كلَّ الجماح
هو القدر المتاح جرى علينا ومن يسطيع للقدر المتاح؟

ويبدو أن شاعرنا كان مبتلى بحراس معشوقاته الذين يسهرون على أولئك النسوة ، فيمنعونهن لقاء أولئك العشاق المتطفلين.

فهؤلاء الحراس يتكرر ذكرهم مع امرأة أخرى غير أم عمرو، يسميها أم طلحة ، فيقول في قصيدة أخرى مكررًا نفس الشكوى: الحب ، والحرمان ، والخوف من الحراس :

يا أمَّ طلحة والديار قريبةٌ والنجمُ من غفلات قومك أقربُ
يا سرحةً حَرُمتْ عليَّ، وإنها لألذ من ماء الحياة وأعذب
ما بعد ظلك لي مقيلٌ فاعلمي كلا، ولا لي بعد مائك مشربُ

ويعود ابن الحمارة إلى موطنه تاركًا ديار أم طلحة، آيسًا من لقائها، ولكنه يتحسر على أيامه الخاليات معها. فيقول في قصيدة أخرى:

ألا ليت شعري هل تعود كعهدنا ليالٍ طويناهنَّ طيَّ المراحل
إذا ذكرتْها النفس كادت من الأسى تَسَرَّبُ في أولى الدموع الهوامل

ويسرف في لوم نفسه على فراقه لأم طلحة التي تغلغل حبها في دمه ، وسكن شرايينه ومفاصله.

إنه يشبه بفراقه إياها ، إنسانًا شاردًا في الصحراء ، اشتد به الإجهاد والظمأ فلما وجد ماءً وهمَّ بالشرب منه طلع عليه قوم شداد بأيديهم أسلحة ماضية فأبعدوه عن الماء .

فانظر إليه وهو يصور هذا المعنى الدقيق لتجسيد الحرمان فيقول:

وإني وتركي أم طلحة بعد ما تسلسل مني حبها في المفاصل
كظمآنُ قفرٍ أبصر الماء حسرةً وقد ذيد عن أطرافه بالمناصل

٣. ابن خروف :

ابن خروف أحد مشاهير النحاة، فقد وضع شرحًا لكتاب سيبويه ، وشرحًا لكتاب (الجُمل) ، ودرَّس في الأندلس ومصر وحلب، وله إسهامات في علم الأصول والمواريث ، وتوفي سنة تسع وستمائة للهجرة (٦٠٩ هـ).

وقد وردت ترجمته في كثير من كتب الطبقات ، مثل : "وفيات الأعيان" لابن خلكان ، و"البداية والنهاية" لابن كثير ، و"عقود الجمان" لابن الشعَّار ، ولقبه الأصلي هو نظام الدين ، وكنيته أبو الحسن ، واسمه علي بن محمد بن علي بن محمد الأندلسي. ولكن لقب ابن خروف هو الذي غلب عليه.

ويبدو أنه كان يضيق بهذا اللقب ، بل لعله اتخذ منه مادةً للفكاهة يتندر بها ليدفع عن نفسه ما قد يضمره جلساؤه من سخرية ، فقد ورد في شعره ما يدل على "توافقه" مع هذا اللقب العجيب!!

فقد دعاه صديق يدعى نجم الدين بن اللهيب إلى طعام، فاعتذر لأن أباه (خروف) ، ولأن أبا صديقه (اللهيب).

فلو لبى الدعوة لاحترق الخروف في اللهيب حتى تتم (الطبخة).

فهو يقول مازحًا وساخرًا من صديقه الذي خانته نباهته فلم يراعِ هذه المفارقة:

ابـــن اللـــهيب دعـــاني دعـــــاءَ غـــــير نبيـــــهِ
إن ســـرتُ يومًـــا إليـــه فوالـــــدي في أبيـــــهِ!!

وكتب مرةً إلى القاضي بهاء الدين بن شداد ، يطلب منه هديةً تقيه البرد الشديد، فهو يطلب فراءً من صوف الغنم فيقول مخاطبًا القاضي أنه طلب هذا الكساء ليتقي به الأمطار الشديدة (الأنواء) ، فيقول :

بهـــاءَ الـــدين والـــدنيا ونـــورَ المجـــد والحســـبِ
طلبـــتُ مخافـــة الأنـــواءِ مـــن نُعمـــاك جلـــدَ أبـــي
وفضـــلك عـــالمٌ أنـــي خـــروفٌ بـــارع الأدب!!

وكان ابن خروف خبيث الهجاء ، حاد اللسان ، إذا هجا أوجع ، وقد أورد له الصفدي في "الوافي بالوفيات" أبياتًا هجا فيها طبيبًا شاعرًا من معاصريه من أعلام الطب في العصر الأيوبي ، وهو مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الملقب بالدِّحْوار (ت ٦٢٧ هـ)، وكان أعرج .

فقال ابن خروف يهجوه بأنه دميم الخلقة لو اطلع عليه المتطبب (المريض) لولى منه فرارا ولملئ منه رعبا من شدة دمامته، وهو – مع دمامته – جاهل بالطب فلو أن لديه بصرا بالطب لسارع إلى علاج نفسه مما يعانيه من عرج في رجله ، وما يعتريه من تكبر وغطرسة وغرور وإعجاب بنفسه :

لا ترجـــونَّ مـــن "الـــدِّحوار" منفعـــةً فلـــو شـــفى علتيـــه: العُجْـــبَ والعرَجـــا

فإنـــه إن رأى المطبـــوبُ طلعتـــَه لا يرتجـــى صـــحةً منهـــا ولا فرَجـــا

وفي قصيدة أخرى يهجوه أيضًا متهمًا إياه بالجهل المطبق، فهو لا يعرف من الطب ظاهرًا ولا باطنًا .

ويقول : إن المريض يجيء إليه وهو بين الحياة والموت فيعجل بموته لما يصف له من الدواء الخطأ فيقول ساخرًا:

إن الأعـــيرج حـــاز الطـــب أجمعـــه أســـتغفر الله : إلا العلـــم والعَمَـــلا

ولـــيس يجهـــل شـــيئًا مـــن غوامضـــه إلا الـــدلائل والأمـــراض والعلـــلا

و(الدلائل – والأمراض – والعلل) هي أسماء العلوم التى كان يتعين إتقانها على كل من أراد تعاطي مهنة التطبيب ، ويقول شاعرنا إن هذا الطبيب واسع الخبرة في التعجيل بموت مرضاه، ولكنه ضعيف الحيلة في شفائهم :

في حيلة البُرْء قلَّت عنده حيَلُ بعـد اجتهـاد ، ويـدري للـردى

الـروح يسـكن جثمـان العليـل علاتـه ، فـإذا مـا طلَّبـه رحـلا

وقالوا: إن ابن خروف كان يعشق فتًى نصرانيًا جميل الطلعة، وحدث أن هذا الفتى ، أو غيره ممن يشبهه ، أدين في قضية فحبسه قاضي القضاة ، فكتب ابن خروف أبياتًا إلى القاضي ، يقول فيها إن هذا الفتى الوسيم يقتل عشاقه بجماله دون عقوبة، فكيف يحبسه القاضي من أجل دراهم معدودة ، وتبالغ كتب الطبقات في ذكر غرام ابن خروف بهذا الفتى.

فيقول مخاطبًا القاضي:

أقاضـــي المســـلمين حكمـــتَ حكمًـــا أتـــى وجـــه الزمـــان بـــه عبُوســـا

حبستَ على الدراهم ذا جَمَالٍ ولم تحبسه إذ سلب النفوسا!!

٤.أبو العجل :

كان أبو العجل ينحو نحو أبي العبر وأبي دلامة وغيرهما ممن يتحامقون، ويتخذون من هذه الحماقة المصطنعة وسيلة للعيش والارتزاق.

والمصادر التى بين أيدينا لا تدلنا على اسمه الحقيقي، وتكتفي بإيراد أشعاره تحت هذا اللقب على نحو ما نرى في طبقات ابن المعتز :

ولكن أشعار أبي العجل رقيقة ، خفيفة الظل ، تدل على روح مرحة بلا تكلف، فهو يقول مثلاً :

أيا عاذلي في الحمق دعني من العَذلِ فإني رخِيُّ البالِ من كثرة الشُّغلِ

وأصبحت لا أدري، وإني لشاهدٌ، أفي سفرٍ أصبحتُ أم أنا في الأهلِ؟

فانظر إليه كيف يأتي بهذا التركيب الفنى الغريب : فهو يستسمح عاذله أن يخفف من لومه ، فلا يلومه لأن له عذرًا في الحماقة : فهو رخي البال من كثرة ما لديه من أشغال !! وهو يعلم – ولا يعلم أيضًا!!- إن كان مسافرًا أم مقيمًا في أهله؟ إنه أسلوب شعري يذكِّرنا بنظرائه ممن كانوا يتعمدون الإغراب للتفكه.

ثمَّ يخاطب عذوله فيسأله أن يأمره بما يشاء ، فسوف يفعل العكس تمامًا ؛ لأنه آلى على نفسه أن يتظاهر بقلة العقل ، فمثل هذا التظاهر سيجلب إليه الغنى والثروة فيصبح مشهورًا:

فمرني بما أحببتَ، آتِ خلافه فإن جئتني بالجِدِّ جئتك بالهزْلِ

وإن قلت لي: لِمْ كان ذاك؟ جوابُه: لأني قد استكثرت من قلة العقل

فأصبحتُ في الحمقى أميرًا مؤمَّرًا ... وما أحد في الناس يمكنه عزْلي
وصيَّرلي حمقي بغالاً وغِلْمةً ... وكنتُ – زمان العقل!!- ممتطيًا رجلي!!

ويقول أيضًا واصفًا ما ناله من حظوة مع الناس بعد أن شاع لقبه هذا (أبو العِجْل) وبعد أن شاع عنه ما أراده لنفسه من حماقة وغفلة، وهو يسخر من أولئك الذين يلومونه على هذا الصنيع، فيقول:

عذلوني على الحماقة جهلاً ... وهْي من عقلهم ألذُّ وأحلى
أذعن الناس لي جميعًا وقالوا ... يا أبا العجْل: مرْحَتبين وسهلاً!!
فبها – لا عدمتها- صرتُ فيهم ... سيِّدًا أُتَّقى، ورأسًا ورِجْلاً

٥.أنف الكلب :

اسمه خطّاب بن المعلّى الليثي، شاعر من أهل البصرة ، وفد إلى مصر وعُرف بلقبه الغريب هذا "أنف الكلب".

وردت ترجمته في كتاب "الوافي بالوفيات" للصفدي.

وروى أنه لما جاء إلى مصر مدح واليها عليًّا بن اصلح بن علي الهاشمي ويبدو أن هذا الوالي لم يرقه مدحه، فلم يعطه ما تمنى ، أو لعله وعده خيرًا، وتأخر عليه في إنجاز وعده.

فقال في بيتين ، لا ندري هل هما استنجاز للوعد ، أم من الهجاء الخفيف الذي يشبه العتب الجميل؟

فهو يقول : إن لهذا الوالي نسبًا شريفًا، ما أجمل أن يزيده جمالاً بإنفاذ وعده لهذا الشاعر، فيقول أنف الكلب :

لعليِّ بن صالح بن عليٍّ ... نسبٌ، لو يزيدُه بالسماحِ

ومواعيــــده الريــــاح فهـــل أنـــت بكفيـــــك قــــابض للريـــــاحِ؟!

٦. جحشويه :

هـذا لقـب شـنيع لقـب بـه شـاعر مـن العصـر العباسـي، ووردت ترجمتـه في "طبقـات" ابـن المعتـز وغيرهـا. لكنـه سـيئ السـلوك، وبـذيء الهجـاء. لا نستحسـن الاستشهاد بشيء من شعره إلا ما استحسنه النقاد من قوله في مدح ابن الجهم:

تمـارى نـدى ابـن الجهـم يومًـا وبأسـه وقــالا: رضــينا في المحاكمــة الفخــرا
فقـال النـدى: يـا فخـر، ألهبـتُ مالـه ولكـــنني عوضـــته الحمـــد والأجـــرا
فقـال لـه البـأس: انتضـيتُ سـيوفه فأوردتـــُها بيضًـــا، وأصـــدرتها حُمْـــرا
فقـال مجيبًـا: شِـدْتما قُبَّــة العــلا وأوطنهـــا، فَلْتعمراهـــا بـــه الـــدهرا

فهـو كمـا تـرى، شـاعر مجيـد، وإن كـان سـوء خلقـه غلـب علـى سـيرته، فكـان جديرًا بهذا اللقب العجيب !! وياله من لقب!!

هؤلاء الشعراء ومعاركهم الزوجية ..!!

يحفل تراثنا الأدبي القديم بطرائف ونوادر عديدة، وكلما كان الشعراء طرفاً في تلك النوادر ، ازداد تأثيرها الممتع في النفس ، لما يسبغه الشعراء على المواقف المختلفة من ظرف وخفة ظل ، وروح فكهة.

وسنختار هنا عدة مواقف وجد الشعراء أنفسهم فيها أطرافاً في معارك زوجية تختلف أسبابها ، وكعادتهم ، يهجون خصومهم أو يهجوهم خصومهم.

وما أطرف أن يكون الخصمان في المعركة شريكي حياة : شاعرا وزوجته.

والشعراء حين يدخلون معركة، يدخلونها بأسلحتهم التقليدية وهي ألسنتهم الحداد التي تفيض بالتشويه والتشهير والافتراء واختلاق الأكاذيب، والسخرية من الخصم.

ويروي لنا الجاحظ في " الحيوان" ما أنشده إياه شاعر يسمى محمد بن يسير تزوج امرأة من غير أن يراها، فلما عاش معها استبشع منظرها فوصفها وصفاً قبيحاً، فقال:

أنبئت أن فتاة كنت أخطبها ... عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

أسنانها مائة، أو زدن واحدة ... كأنها- حين يبدو وجهها- غول

وشهر الصوم أطول شيئ عند الشعراء ، لأنه يحرمهم من الملذات فهو يشبه طول عرقوبها بشهر الصوم ، ويعد أسنانها فيجدها ما بين مائة سن، ومائة وواحدة!!

ويروي أن أعرابياً كان عليه ديون كثيرة، فاجتمع غرماؤه يطالبونه بمالهم عنده من ديون، وهو يدافعهم وينكر أن معه مالاً يسدد به ، فلما طال بينهم وبينه التنازع والتدافع واشتد الجدال، طلبوا إليه أن يحلف بالطلاق من زوجتيه- وكان عنده زوجتان يكرههما معا-فحلف للدائنين بالطلاق ، من زوجتيه جميعا ، حانثاً ثم هرب من تلك البلدة وأنشد:

لــو يعلم الغرماء منزْتيهما ماخونوني بالطلاق العاجــل !!

قد ملتا، ومللت من وجهيهمــا عجفاء مرضعة، وأخرى حامـل !!

وهذا أعرابي يتأمل دمامة وجه امرأته ويصفه لنا وصفاً دقيقاً، فيقول إن عينيها ضيقتان فلا تستطيع إيصال المرود إليهما لتكتحل، وأما ثدياها فواحد صغير جداً كأنه"موزة" والآخر كبير جداً يشبه قربة الماء التي يحملها المسافرون :

ولا تستطيع الكحل من ضيق عينها فـإن عالجتـه صـار فـوق المحـاجر

وثديـان أمـا واحـدُ فـ كـ"مـوزةٍ " وآخــر فيــه قربــة المسافـــر !!

وهذا أعرابي تزوج امرأة اسمها "صعبة" وعاش معها ثلاثين سنة في نكد مستمر ، وعذاب متجدد ، فضجر من الحياة معها ، ونذر أن لو أراحه الله منها فلن يتزوج بعدها ، فيقول :

ثلاثين حولاً لا أرى منك راحةً لهنَّك في الدنيا لباقية العمـر!!

فإن أنفلت من حبل"صعبة" مرة أكن من نساء الناس في بيضة العقر

[لهنك :- لأنك : أي إنك واللام لام الابتداء. وهي لهجة عربية تبدل الهمزة هاءً].

وقال أبو الأسود الدؤلي يتضجر من طول عشرته كذلك مع زوجته أم عوف:

أبى القلب إلا أم عوف وحبها　　عجوزاً، ومن يحبب عجوزا يفند

كثوب اليماني قد تقادم عهده　　ورقعته ما شئت في العين واليد...!!

[يفنَّد: بفتح النون المشددة: يُلام ويؤاخذ].

وقد جرى المثل بهرمي مصر في الثبات والقدم والحصانة، ولكن ذكرهما ورد على لسان أعرابي مع جبلي طيء، حين شبه بهما أسنان امرأته فقال وهو يهجوها بالقبح والبرودة والثقل :

ألام علـى بغضـي لمـا بـين حيـة　　وضبع وتمساح أتـاك مـن البحـر

تحـاكي نعيمـاً زل مـن قـبح وجههـا　　وصفحتها لما بدت سطوة الدهر

هـي الضـربان في المفاصـل دائبـاً　　وشعبة برسام ضممت إلى صدري

إذا سـفرت كانـت لعينـك محنـة　　وإن برقعت فـالفقر في غايـة الفقـر

حديث كقلع الضرس أو نتف شارب　　وغنج كهشم الأنف عيل به صبري

وتفـتر عـن قلـح عـدمت حـديثها　　وعن جبلي طي وعن هرمي مصر

وقال الرحال بن مجدوح النميري ، يهجو امرأته مثلما هجا جران العود امرأته، وكانا صديقين ، وليست من الألف المختارة:

أقـولُ لأصـحابي الـرّوَاحَ فقرِّبـوا　　جُماليَّـــةً وجنـــاءَ تـــوزِعُ بـــالنَّقرِ

وتَـــزَّينَ ذيَّـــالاً كـــأنَّ ســـراتهُ　　ســراةَ نقــا العــزَّ فــِ لبّــدهُ القطــرُ

فقلـنَ أرحْ لا تحـبسِ القـومَ إنَّهـمْ　　ثوىٰ أشهراً قد طال ما قد ثوى السَّفرُ

فقامتْ بئيساً بعد ما طال نزرها　　كــأنَّ بهــا فــتراً ولــيسَ بهــا فــترُ

قطيعٌ إذا قامتْ قطوفٌ إذا مشتْ ... خطاها وإن لم تألُ أدنى منَ الشّبرِ

إذا نهضت من بيتها كانَ عقبةً ... لها غولُ ما بين الرّتاقين والسترِ

فلا باركَ الرحمنُ في عودِ أهلها ... عشيَّةَ زفُّوها ولا فيكِ من بكرِ

ولا باركَ الرحمنُ في الرَّقمِ فوقهُ ... ولا بارك الرحمن في القطفِ الحمرِ

ولا في حديثٍ بينهنَّ كأنَّهُ ... نئيمُ الوصايا حين غيَّبها الخدرُ

ولا جلوةٍ منها يحلِّينني بها ... ألا ليتني غيِّبتْ قبلكِ في القبرِ

ولا في سقاطِ المسكِ تحتَ ثيابها ... ولا في القواريرِ المسكةِ الخضرِ

ولا فرشٍ ظوهرْنَ من كلِّ جانبٍ ... كأنِّي أكوَّى فوقهنَّ من الجمرِ

ولا الزَّعفرانِ حينَ شحَّنها بهِ ... ولا الحلي منها حين نيطَ إلى النَّحرِ

ولا رقةَ الأثوابِ حينَ تلبَّستْ ... لنا في ثيابٍ غيرَ خشنٍ ولا قطرِ

ولا عجزٍ تحتَ الثيابِ نبيلةٍ ... تديرُ لها العينين بالنَّظرِ الشَّزرِ

وجهَّزتها قبلَ المحاقِ بليلةٍ ... فكانَ محاقاً كلُّهُ ذلكَ الشَّهرِ

وقد مرَّ تجرٌ فاشترا لي بناءها ... وأثوابها لا باركَ اللّه في التَّجرِ

ولا فيَّ إذ أحبو أباها وليدةً ... كأنيَّ مسقيٌّ يعلُّ من الخمرِ

وما غرَّني إلاّ خضابٌ بكفِّها ... وكحلٌ بعينيها وأثوابها الصُّفرِ

وسالفةٍ كالسَّيفِ زيلَ غمدهُ ... وعينٍ كعينِ الرِّئمِ في البلدِ القفرِ

وشبهِ قناةٍ لدْنةٍ مستقيمةٍ ... وذاتِ ثنايا خالصاتٍ من الحبرِ

وإن جلستْ وسطَ النّساءِ شهرنها ... وإن هي قامتْ فهيَ كاملةُ الشّبرِ

فلما برزناها الثّيابَ تبيَّنتْ ... طماحَ غلامٍ قد أجدَّ بهِ النَّقرُ

دعاني الهوى نحو الحجازِ مصعَّداً وإنّي وإيَّاها لمختلفا النَّجرِ
ألا ليتهمْ زفُّوا إليَّ مكانها شديدَ القصيرى ذا عرامٍ من النُّمرِ

وقال أعرابيّ يهجو امرأته :

خرقاءُ بالخير ما تُهدى لوِجْهته وهيَ صَناعُ الأذى في الأهلِ والجارِ
ليستْ بشَبْعى ولو أوردتَها هَجَراً ولا بريّا ولو حلَّتْ بذي قارِ

وإلى هذا المعنى نظر القائل :

كالحوت لا يكفيه شيءٌ يلهَمُهْ يُصبحُ ظَمآنَ وفي البحر فَمُهْ

ولآخر يخاطب امرأته:

يا رُبَّ مثلكِ في النساءِ عزيزةٍ بيضاء قد روَّعتُها بطلاقِ
لم ندرِ ما تحتَ الضُّلوع وغَرّها منّي تجمّل عِشرتي وخلاقي

وقالوا : كانت دقاق أم ولد يحيى بن الربيع أحمد المعروف بابن دقاق مغنية محسنة متقنة الأداء والصنعة ، وكانت قد انقطعت إلى حمدونة بنت الرشيد ثم إلى غضيض ، وكانت مشهورة بالظرف والمجون والفتوة.

قال أحمد بن الطيب : وعتقت دقاق فتزوجها بعد مولاها ثلاثة من القواد من وجوههم ، فماتوا جميعاً ، فقال عيسى بن زينب يهجوها:

قلت لما رأيت دار دقاق حسنها قد أضر بالعشاق
حذرِ! الرابع الشقي دقاقا لا يكونن نجمه في محاق
أله عن بضعها فإن دقاقا شؤم حرها قد سار في الآفاق
لم تضاجع بعلاً فهب سليما بل جريحاً وجرحه غير راقي

وأما الشاعر المجهول أبو محمد الحسن بن يحيى بن رويبل الأبار ، وهو من أهل دمشق .

فقد ذكره بعض معصريه وقالوا: كان شيخاً مطبوعاً ديناً ناسكاً لا يشرب الخمر ولا يقرب المنكر ؛ وله دكان في سوق الأبارين يبيع الإبر . وتوفي بدمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

قالوا : وكان مع نسكه وعفته، مغرى بهجو زوجته.

وذلك أنها أشارت عليه بمدح كبير فمدحه فما نفع ، فهجاه فصفع ، فقال لولا زوجتى لما صفعت ، ولولا تغريرها بي لما وقعت. فقال يهجوها :

أُغْرِيَتْ زوجتي بشُرْب العُقارِ   أَسكنتْني بجنب دار القِمارِ

أَطعَمَتني مُخّ الحِمار فلمّا   أبصرتْني قد صِرْتُ مثل الحمار

بذلتْ فرجها وصاحت إلى النّا   س هلمّوا يا مَعْشر الفُجّار

وقال :

لي قِطّةٌ أَنظفُ مِنْ زوجتى   ودُبرها أَنظفُ مِنْ فيها

وكلّ ما صوّره ربُّنا   من الخنا رَكّبه فيها

وله فيها أشعار أشد قبحا مما اخترناه ، لا نستطيع إيرادها هنا .

وذات مرة اشترى أبو الأسود هذا جارية حولاء ، فشعرت زوجته أم عوف بالغيرة لأن زوجته كانت ابنة عمه، ورأت في تلك الجارية الحولاء منافسة لها فشنت على الجارية حرباً نفسية، وكانت كلما رأت زوجها أبا الأسود ، والجارية

واقفة أو جالسة قريباً منها ، رفعت عقيرتها وقالت كأنها في سوق النخاسة : من يشترى جارية حولاء ؟

فلما طال ذلك وتكرر قال أبو الأسود : يدافع عن جاريته ويغمز في امرأته :

يعيبونها عندي، ولا عيب عندها ... سوى أن في العينين بعض التأخر
فإن يك في العينين سوء فإنها ... مهفهفة الأعلى، رداح المؤخر

ومن أبواب الشجار الدائمة بين الشعراء وزوجاتهم ، تقدم السن بأحد الطرفين والمرأة دائماً هي التي تدفع الثمن غالياً إذا تقدمت بها السن ، لأن من عادة الشعراء التماس الجمال ، ونشدان الربيع الدائم ، وحدث مرة أن تأخر أعرابي في الزواج إلى أن بلغ الخامسة والأربعين فتزوج امرأة في مثل سنه.

فقال له شاعر من أصدقائه :

وأعنَسْت نفسك حتى إذا ... أتيت على الخمس والأربعينا
تزوجتها شارفاً فخمةً ... فلا بالرِّفاء ولا بالبنينا
فلا ذات مال تزوجتها ... ولا ولد ترتجي أن يكونا
بها أبداً فالتمس غيرها ... لعلّك تعطى بغثٍ سمينا

وتزوج جهم الشاعر امرأة من بنى فقعس ، وباع إبلاً له ليدفع مهرها، فلما دخل عليها رآها عجوزاً فتحسر على إبله التي ضاعت، وتوقع لنفسه الموت أسفاً وندماً على يدي هذه العجوز الشمطاء وكان اسمها" قمامة "!! فقال جهم باكياً:

وما لمت نفسي مذ فطمت بلحيةٍ ... كما لمت نفسي في عجوز بني شمس

غبنت ولم أغبن غداة اشتريتها وبعت تلاد المال بالثمن البخس

فإن مات جهمٌ غيلةً فاقتلو به قمامة إن النفس تقتل النفس

وكانت نظرة العرب الى تقدم العمر عجيبة ، وفيها تحيز الى جانب الرجال فكانوا يقولون إن خير نصفي الرجل آخرهما(أي النصف الثاني من عمره) ففي هذه المرحلة من العمر : يذهب جهله، ويثوب حلمه، ويجتمع له رأيه ، وإن شر نصفي المرأة آخرهما: يسوء خلقها ، ويحد لسانها ، وتعقم رحمها!!

ولذلك قال بعضهم يحذر من زواج العجائز :

لا تنكحن عجوزً إن دعوك لها وإن حبوك على تزويجها الذهبا

وإن أتوك وقالوا: إنها نَصَفٌ فإن أطيب نصفيها الذي ذهبا

ومن الشعراء من تمنى الموت لنفسه أو لزوجته حتى يستريح من عذاب الحياة المؤلة التي تجمعهما.

فهذا شاعر يدعو على الوسطاء الذين رشحوا له امرأته التى تزوجها ، ويدعو على نفسه بالموت فيقول :

وقد مر تجر فاشتروا لي بناءها وأثوابها ، لا بارك الله في التجر

ولا فيَّ إذ أحبوا أباها وليدةً كأني مسقي يعل من الخمر

ولا بارك الرحمن في عود أهلها عشية زفوها، ولا فيك من بكر

ولا بارك الرحمن في الرقم فوقه ولا بارك الرحمن في القطف الحمر

ولا جلوةٍ منها يحليني بها ألا ليتني غيبت قبلك في القبر

[تجر : تجار ، القطف : بضم القاف والطاء : من القطفية].

وهجا بعضهم امرأته فوصفها وصفا حسيا شنيعا ، فهي بين البرغوث والبعوضة في ضآلة الجسم – والأذى بطبيعة الحال !! – ووجهها يذكر شاعرنا بوجوه القرود في قبحه ودمامته ، بل إنه يراه أشد من القرود قبحا ، ولو أن الشيطان نفسه رأى وجهها لقضى يومه وليلته مستعيذا بالله من قبحها :

لها جسم برغوث وساقا بعوضة ... ووجه كوجه القرد بل هو أقبح

تبرق عينيها إذا ما رأيتها ... وتعبس في وجه الضجيع وتكلح

لها منظر كالنار تحسب أنها ... إذا ضحكت في أوجه الناس تلفح

إذا عاين الشيطان صورة وجهها ... تعوذ منها حين يمسي ويصبح

وأما ذلك الأعرابي فقد تمنى الموت لزوجته ، وكاد يقتلها لولا أنه خشي ما يترتب على قتلها من أخذ بالثأر، فهو يقول لنا إنه كان يفكر كثيرا في أن يقتلها ثم يتوب الى الله ويرجو مغفرته ولولا خوفه من عقاب الله لوضع السيف على رقبتها في موضع العقد واستراح منها:

لولا مخافة ربي أن يعاقبني ... وأنها عدة تقضى وأوتار

لقد جعلت مكان الطوق ذا شطب ... وتبت بعد ، فإن الله غفار

ويتحسر شاعر آخر على ما آل إليه حاله مع زوجته ، ويسترجع أيام الخطبة حين خدعته بكحلها الفاتن ، وأثوابها الملونة، وعطورها النفاذة ، فلما عاش معها ، وسبر طبعها ، وملَّ من حديثها عن الحب ، فاضت نفسه بهذه الأبيات يتحسر فيها على ما كان فيقول:

وما غرّني إلا خضابٌ بكفّها ... وكحلٌ بعينيها وأثوابها الصّفر

تسـائلني عـن نفسـها: هـل أحبّــها؟ فقلت: ألا ، لا ، والذي أمرء الأمـر!!
تفوح رياح المسك والعطر عندها وأشـهد عند الله مـا ينفـع العــطر!!

على أن من الشعراء من فضل الطلاق على تمنى الموت ، ورأى في الطلاق خلاصاً من جحيم حياة زوجية لا سكن فيها ولا سكينة، ولا حب فيها ولا حنان فهذا شاعر يقول لزوجته إن ليلة طلاقها ستكون أحب إليه من ليلة دخوله بها:

تجَّهــزي للطَّــلاق وانصــرفي ذاك جَــزَ ءُ الجــوامِحِ الشُّـمُسِ
لَلَيْــلَتي حــين بِــت طالقــةً ألــذُّ عِنْــدِي مِــنْ لَيلــةَ العُــرُسِ

والزوجات يرددن الصاع صاعين:

وإذا كــان الشــعراء يســتعينون بألســنتهم الحــداد للانتقــام مــن نســائهم والسخرية من دمامتهن ، أو كبر أعمارهن ، فإن من النساء أيضاً شاعرات انتقمن لأنفسهن وهجـون أزواجهـن ، وعبرن عـن ضيقهن ومللهن مـن حيـاتهن الكئيبـة مـع أزواج مزعجين لا يريحون ولا يستريحون .

فهذه شاعرة تسمى عصيمة الحنظلية تختنق من سوء خلق زوجها ، وتشعر بأن بيتها سجن ، أو حفرة مملوءة بالدخان حين يكون زوجها بالبيت ، فهي تتمنى أن يأخذ السفر زوجها فلا يعود إليها، بل إنها لو استطاعت لافتدت نفسها من حياتها معه بمائة من الإبل تدفعها لمن يخلصها من هذا السجن :

كـأن الـدار حـين تكـون فيهـا علينــا، حفــرة ملئــت دخانــا
فليتــك في ســفين بنــى عبــادٍ فتصـــبح لا نـــراك ولا ترانـــا
فلــو أن البــدور قــبلن يومــاً لقــد أعطيتهــا مائــةً هجانـــا

ونتقدم خطوة أكبر مع امرأة من بنى ضبة تسخر من زوجها الدميم ذي القدمين المقوستين ، وهو زوج يبغضه كل من يعرفه ، فهي حين تدعو عليه تجد دائماً من يؤمن على دعائها تشفيا منه ، وتعبيراً عن بغضه.

وتتمنى لو أن الأقدار فرقت بينهما تفريقاً لا لقاء بعده بحيث تكون هي في أقصى الشرق في الصين، ويكون هو في أقصى الغرب في أوروبا فتقول تلك الضبية:

تــراه أهــوج ملعونــاً خليقتــه   يمشي على مثل معوج العراجين

ومــا دعــوت عليــه قــط ألعنــه   إلا وآخـــــر يتلــــو، بآميــــــن

فليتــه كــان أرض الــروم منزلــه   وأننــى قبلــه صُــيِّرتُ في الصــين

وكما عبر بعض الشعراء عن ندمهم على زواجهم لدرجة أنهم كانوا يفضلون الموت على هذه الزيجة، فكذلك كان شعور بعض الزوجات تجاه أزواجهن.

فهذه جمرة الأزدية تذكر زوجها أبا وائل فتصفه بأنه ليس من وجوه الرجال وتتمنى أن لو كانت ماتت ولم تتزوجه:

لعمــرك مـــا إن أبـــو وائـــلٍ   إذا ذكــــر القــــوم بالطائــــل

فيـــا ليـــتني لم أكـــن عرســـه   وعُوجلـــت بالحـــدث العاجـــل

وزَوَجَت امرأة تسمى أم جحدر ابنة لها من رجل قبيح المنظر فقالت إن الذين وصفوه لها خطيباً لابنتها غشوها غشاً كبيراً فليتها حين وُصف لها تحققت منه وتأملت وجهه ورجليه:

لقـد دلّـس الخُطَّـاب يـا أم جحـدرٍ   لكم في سواد الليل إحدى العظائم

ألم تنظري - حييت يا أم جحدر-   إلى وجهه أو تنظري في القوائم

فلما تمعنت فيه أبدت أسفها وقالت قبَّح اللّه الطلعة وأنشدت :

وإن أناســاً زوجــوك فتاتهــم ‏ ‏ ‏ ‏ لجدٌّ حـراص أن يكـون لهـا بعـلْ !!

ولكن العجب أن يكون الزوج شاعراً والزوجة شاعرةً، ويتبادلان السخرية والسباب ، فهذا شاعر يرى زوجته تمر أمامه في البيت فيقول إنه لو خُيِّر يوم تزوجها بينها وبين حية عظيمة لا ختار الحية بدلاً من زوجته ، وقضى بقية حياته يمرح ويسرح مع الرعاة في الجبال :

تلـك التـى لـو أنـني خيرتهــا ‏ ‏ ‏ ‏ أو حيـــة همــــازة الأســـنان

لاخترتهــا بـدلاً بهــا وغزتهــا ‏ ‏ ‏ ‏ وصــدرت ذا جــذلٍ مــع الرعيــان

فترد له الصاع صاعين ، فتمعن في ذم عيوبه فهو عجوز لا خير لامرأة فيه ولم يبق منه إلا لسانه الطويل الشتام ، ويتشبث بالشباب مع أن ظهره قد انحنى ووجهه قد تغضن فكثر عليه الذباب ، فلو أنها خُيِّرت يوم تزوجته بينه وبين كلبها " ذكوان" لاختارت الكلب ولم تختره:

يــا رب شـيخٍ قـد تـولى خـيره ‏ ‏ ‏ ‏ ذرب اللســـان كأنــــه ظربــــان

يرجو الشباب وقد تحنى ظهره ‏ ‏ ‏ ‏ وعفــاه- بعــد منامــه – الــذبان

ذاك الــذي لــو أنــني خيرتـــه ‏ ‏ ‏ ‏ لم أرتضـــيه بكلبنــــا " ذكــــوان"

ولكن في المقابل هناك نساء يحفظن العهد ، ويستمسكن بالود، فهذه امرأة شاعرة طلقها زوجها ثلاث طلقات ، فتزوجت محللا، فأعجبته ورفض المحلل أن يطلقها ، فبقيت على مودتها لزوجها القديم تتذكره أول يومها عندما تستيقظ، وآخر الليل عندما تنام، ولكنها لا تملك له إلا هذا الود الصافي وأن تظل دائما وفية له طوال

عمرها ، تنصحه بما ينفعه إذا استنصحها وترشده إذا استرشدها فبعثت الى زوجها تقول له :

قُصاراك منى النصح ما دمتُ حيةً ووِدٌ كمـاء المـزن غـير مشـوب

وآخر شئٍ أنت في كل هجعـةٍ وأول شـيء أنـت عنـد هبوبـي

وقالت تصف حالها مع هذا المحلل :

لِمَنْ بكرةٌ مطروفةٌ العين نـازعٌ معذبـةٌ في حبـل راعٍ يهينـها ؟!!

وقال أعرابي يخاطب امرأته وقد غرها منه طيب العشرة وحسن الخلق فأساءت إليه :

يـا رُبَّ مثلكِ في النساءِ عزيـزةٍ بيضـاء قـد روَّعتُها بطـلاقِ

لم ندرِ ما تحتَ الضُّلوع وغَرَّها منـّي تجمّـل عِشـرتي وخلاقـي

وقال أعرابيّ آخر يهجوا امرأته لما رأى منها من سوء المعاشرة وإيذاء الأهل والجيران وحماقة التصرف وشراهتها إلى الطعام والشراب :

خرقاءُ بالخير ما تُهدى لوِجْهته وهيَ صَناعُ الأذى في الأهلِ والجارِ

ليستْ بشَبْعى ولو أوردتها هَجَراً ولا بريّـا ولـو حلَّـتْ بـذي قـارِ

ولما هجا أبو الطّروق الضبِّيُّ امرأته، وكان اسمها شَغْفَر بالقُبح والشناعة فقال:

جاموسـة وفيلـةٌ وخـَنزرُ وكلُّهـنَّ في الجمـال شَغـْفرُ

جعل الخنزير خَنزراً، فجمعها كما ترى للتّشابه، وقال آخر في وصف امرأته أيضا:

كـأنّ الـذي يَبْدُو لنـا مـن لِثامِها جَحافـلُ عَـيرٍ أو مشـافر فِيـلِ

وقال أعرابي فيامرأة تزوجها وكانت سَوْداء:

كأنهـــا والكُحْـــل في مِرْوَدِهـــا　　تَكْحَـل عَيْنَيها بـبعض جِلْـدِها

وقال فيها يخاطبها :

أشْـــبَهك المِسْــكُ وَأشْـــبَهته　　قائمـــــةً في لَوْنــــه قاعِـــــدَهْ

لاشَـــكَّ إذ لَوْنُكمـــا وَاحِــــدٌ　　أنكمـــا مـــن طِينَـــة واحـــده

وقال يصفها ويقول إنه لو كشف للناس نصف وجهها لأغرقوه ببصاقهم لسوء اختياره :

ولـوانني أبديت للنـاس بعضـها　　لأصبحت من بصق الأحبة في بحر

وقال في وصف امرأته وكأنه يرسم لنا لوحة فنية :

يـا ركـبتي خـزز وسـاق نعامــةٍ　　وزبيــل كنــاس وشــدق بعــير

يـا مـن أشـبهها بحمـى نـافض　　قطاعــــة للقلــــب ذات زفــــير

صدغاك قد شمطا ونحرك يابس　　والصـدر منـك كجؤجـؤ الطنبـور

يـا مـن معانقهـا يبيـت كأنـه　　في محـــبس قمــل وفي ســاجور

قبلتهـا فوجـدت طعـم لثاتهـا　　فــوق اللســان كلسـعة الزنبـور

وهَجَا أعرابيّ امرأته،فقال:

يـــا بِكْـــرَ حَـــوَّاء مـــن الأولاد　　وأمَ آلافٍ مِـــــــنَ العِبَـــــــادِ

عُمْـــرك مَمْـــدُود إلى التـــنَّادي　　فحــــدِّثينا بحــــديث عـــــاد

والعَهْـدِ مـن فِرْعَـوْن ذي الأوتـاد　　يـــا أقـــدَمَ العـــالَم في الـــبلاد

إني من شخصك في جهاد !!!

ولأعرابي آخر في زوجته يهجو. وقد أحسن في وصفه تكمش وجهها:

ولا زَيْزَفِيَّــــــــة الثـــــــنَّايا قـــــد قَمَّعَـــتْ رأسَـــها بقِـــيرِ
كأنـــــمّا وجهُهـــا قمـــيصٌ قــــد فَرَّكـــوه علـــى حصـــيرِ
وَيْلــي علــى مــا وقَعْـتُ فيهـا أوقعهـــا اللّهُ في السَّـــعِيرِ

وله في ولده أيضاً:

لـــي ولـــدٌ لا وَلَـــدتْ أُمُّـــهُ أَعْذِلُـــهُ الـــدَّهْرَ فمـــا يَرْعَـــوِي
اللّه قــــد صــــيَّرَهُ أعوجـــاً يــا ذنــبَ الكلــبِ أمــا تَــستوي

وله في زوجته أيضا يصف شرهها للجنس وطمعها في المال:

قـــالوا تزوَّجْــتَ دُبَيْسِــيَّةً أضــرى مــن الــذئب علــى الشّــاةِ
تقديسُــها النـــَّخْرُ وتســبيحُها وهـــاتِ تـــَقْرًا في التـــَّحِيّاتِ

وقد جرى المثل بهرمي مصر في الثبات والقدم والحصانة، وذكرهما أعرابي مع جبلي طيء، فقال وهو يهجوا امرأته بالقبح والبرودة والثقل:

ألام علــى بغضــي لمــا بــين حيــة وضبع وتمساح أتـاك مـن البحـر
تحـاكي نعيمـاً زل مـن قـبح وجههـا وصفحتها لما بدت سطوة الدهر
هــي الضــربان في المفاصــل دائبــاً وشعبة برسام ضممت إلى صدري
إذا سـفرت كانـت لعينـك محنــة وإن برقعت فـالفقر في غايـة الفقـر
حديث كقلع الضرس أو نتف شارب وغنج كهشم الأنف عيل به صبري
وتفــتر عــن قلــح عــدمت حــديثها وعن جبلي طي وعن هرمي مصر

وقالوا : إن الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة ويقال بل خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة كان تزوج امرأة تسمى حميدة قبل روح بن زنباع فقالت فيه:

نكحت المديني إذ جاءني فيا لك من نكحةٍ غاوية
له دفر كصنان التيوس أعيا على المسك والغالية
كهول دمشق وشبانها أحب إليّ من الجالية

[الدفر : الرائحة ، الصنان : الرائحة الكريهة ، والجالية هم الذين أجلاهم عبد الله بن الزبير من الحجاز من بني أمية وغيرهم من أشياعهم إلى الشام.]

فقال زوجها مجيباً لها

أسنا ضوء نار صخرة بالقفرة أبصرت أم تنصب برق
أية ما يكن فقد هاج للقلب اشتياقاً وأنه غير مبق
لسنا بين الحجون إلى الحرة في مغمرات ليلٍ وشرق
ساكنات العقيق أشهى إلى القلب من ساكنات دور دمشق
يتضوعن إذ تمخضن بالمسك صناناً كأنه ريح مرق

ثم طلقها فتزوجها روح ، [المرق : صوف الجلد القديم]

وقال أبو العاج الكلبي لامرأته:

عجوزٌ ترجى أن تكون فتية ... وقد لحب الجنبان واحدودب الظهر
تدس إلى العطار ميرة أهلها ... ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر
أقول وقد شدوا عليّ حجالها ... ألا حبذا الأرواح والبلد القفر

فقالت:

ألم تر أن الناب تحلب علبة ... ويترك ثلب لاضراب ولا ظهر

وقال فيها:

قد زوجوني عجوزٌ متبعاً رجلاً ... قد كنت قبلك حذرت المتابيعا

فقالت:

شنئت الشيوخ وأبغضتهم ... وذلك من بعـض أفعاليه

تــرى زوجـة الشيخ مغبرة ... وتمســـي لصحبته قاليه

فـــلا بـــارك الله في عرده ... ولا في عظام استه البالية

وقالت بنت عبد الله بن عتاب من عنزة لزوجها رجاء بن خيثمة بن عتاب:

الحمد لله الذي أهانكا ... وجعل الذريح من أخدانكا

ببلدةٍ تبلي بها أكفانكا

فقال يجيبها:

قـــد جعلـــتني وذربحـــاً نـــدين

وهـــي عجـــوزٌ لا تســـاوي فلســـين

محترقـــين مـــن نحـــاس نحـــتين

كســـلعة الســـوء تبـــاع في الـــدين

فقالت:

تـــركتني ببلـــدٍ طمـــوس

لـــيس بهـــاجن ولا أنـــيس

إلا بقايـا الحـيض والحلـيس

يـــا ليتـــه في حفـــرة مرمـــوس

وقالوا : كانت تحت رجل من أزيم بن ثعلبة بن يربوع يقال له أبو مرحب بنت عمٍ له فقالت:

يموت الرجال الصالحون ولا أرى ... أبا مرحب إلا شـديـد الجـوانح

أطعن فلا يعصين أمري فلا يـرى ... إذا رجعـــوا إلا ديـــار الجوامح

فإني سأهديكن في كـل سبســـب ... تهادي به أيـــدي القلاص الطلائح

فقال أبو مرحب مجيباً لها:

لعمري لقد غاليتها فاشتريتها ... وما كل مبتاع من الناس رابح

رأيت لها أنفـــاً فبيحاً يشينها ... وعلباء سوءٍ لـم تزنـــه المسائح

وقالت هند بنت عصم السدوسية وكانت عند ربيعة بن غزالة الكندي لامرأة أبيها يزيد بن ربيعة بن غزالة:

أيزيد قـد لاقيـــت منكـــرة ... عجلت بأمك مدخل القبر

هـــوجـــاء جاهلة إذا نطقت ... ليست كعاباً بضـــة الخدر

ســـوداء مـــا تنفك متأفـــة ... مـــلأى مضببـــة على غمر

ما كان جدك في النساء بذي ... فـــرع عشيـــة طيرها يجري

وقالت أم الأسود الكلابية تهجو زوجها:

سأنذر بعـــدي كل بيضـــاء حرة ... منعمة خـــودٍ كـــريـــمٍ نجـــارها

قصير قبال النعل يضحي وهمـــه ... قريبٍ ويمسي حيث يعشيـه نارها

إذا قال قد أشبعتني بات راضياً ... له شملـــة بيضـــاء خاف حمارها

يرى الطيب عاراً أن يمس ثيابه ... أو المسـك يومـــاً إن علاه صوارها

ولكنه من رطب اختـــاء صنانـه ... إذا أمرعت بالكف منه ديارها

وطيـر بذيـــال يرى الليـــل متنه ... لناقته حتى يحين اذكـــرارها

بعيد المدى يقضي الكرى فوق رحله ... إذا القوم بالموماة حار شرارها

لعمـــر أبـــي ما خارلي أن يبيعني ... بأبعـــرة إذ قحمتــه عشارها

فـــوالله لـــولا النـــار أو أن يرى أبي ... لــه قــوداً أو أن ينــالني عارها

لقد نازعــت كفــي المهنـــد ضربةً ... وكان عليه خبلها وشــنارهــا

وقالت حميدة لروح بن زنباع إن فيك لأربع خصال ما يسود عليهن أحد قال وما هي لا أبا لك فوالله إن الخصلة الواحدة لتفسد الرجل السيد قالت أما الواحدة فإنك من جذام وأما الثانية فإنك جبان وأما الثالثة فإنك غيور وأما الرابعة فإنك بخيل قال روح أما قولك أني من جذام فحسب المرء أن يكون من صالح من هو منه "أي من صالح قومه" وأما قولك اني جبان فإن مالي نفس واحدة ولو كان لي نفسان جدت بإحداهما وأما قولك أني غيور فوالله اني لجدير بالغيرة على الورهاء اللئيمة مثلك وأما قولك أني بخيل فوالله ما في مالي فضل عن قومي ولكن اذهبي فأنت طالق.

وأنشد أبو غسان لامرأة تهجوا امرأة أبيها:

جاز بها وهي تبكي الأهــلا ... تكحلهمـــا إلى التمام كحلا

من سهر مضي يذدن هملاً ... آمــــاق أجفان حذلن حذلاً

يا رب رب الراقصات ذملاً ... يزحلن بالأرجل زحلاً زحلاً

يطوين سيراً شركياً سهـلا ... أبعث عليهـــا تيحانــاً صــلا

شختاً لطيفاً كالقضيب علا ... يحل منها بالإصبعين حلا

حل الفليجات سملن سملا

وقالوا : مدح قتادة بن مغرب يزيد بن المهلب فأعطاه وملأ يديه وتزوج بنت يزيد الحنفي فلما دخل بها ، كرهها من ليلتها فلما أصبح طلقها وقال:

تجهزي للطلاقِ وارتحلي ... ذاك دواءٌ للرامح الشمس
لليلةٍ حين بنت طالقة ... ألذ عندي من ليلة العرس
بت لديها بشر منزلةٍ ... لا أنا في نعمةٍ ولا فرسي
هذا على الخسف لا قضيم له ... وبت ما إن يسوغ لي نفسي

قال فالحقها بأهلها وبلغها قوله فشدت عليها ثيابها وأتت باب يزيد بن المهلب فاستأذنت عليه فدخلت وقتادة عنده فقالت تصف عذابها معه من نتن رائحة فمه :

حلفت فلم أكذب وإلا فكل ما ... ملكت لبيت الله أهديه حافية
لو أن المنايا أعرضت لاقتحمتها ... مخافة فيه أن فيه لداهية
وكيف اصطباري يا قتادة بعدما ... شممت العدى من فيك أدمى سماخيه
فما جيفة الخنزير عند ابن مغرب ... قتادة إلا ريح مسكٍ وغالية

وقال لقيط بن بكير: قالت طارقة وهي مولاة لأهل بيت من امرء القيس بن زيد وكان تزوجها مولى لبني كلب يقال له ثابت وكنيته أبو الفصيل فخطب مولاة أخرى من مواليات بني امرؤ القيس وكانت تتهم بالسحر وكان يقال لها نجود وبلغها ذلك فجعلت تقول:

لا خار ربي لأبي الفصيل ... ولا وقاه عثرة الذلول
بدل مني أخبث البدول ... هوجاء مقاء كشبه الغول

تحمل رفغاً واسع الفضول ... مثل إهاب الميحة المبخول

ببيتٍ فيه الذئب أو يقيل

وقالوا : كان يزيد بن هبيرة المحاربي أول أمير ولي اليمامة لعبد الملك بن مروان فتزوج امرأة من ولد طلبة بن قيس بن عاصم المنقري فقالت:

للبس عباءة وتقر عيني ... أحب إليّ من لبس الشفوف

بكر يتبع الأظعان صب ... أحب إليّ من بغل زفوف

وبيتٍ تخفق الأرواح فيه ... أحب إليّ من قصرٍ منيف

وقالوا : تزوج رجل من بني جسر امرأة من ولد طلبة بن قيس وكان الرجل دعياً فرفع إلى يزيد بن هبيرة ففرق بينهما وقالت وهي عنده:

لقد كنت عن حجر بعيداً فساقني ... صروف النوى والسابقات إلى حجر

يقولون فرش من حرير وإنما ... أرى فرشهم عندي كحامية الجمر

وإني لأستحي تميماً وغيرها ... من إنكاحهم إياي عبد بني جسر

تحايل الزوجات :

ومن الزوجات من توقع بزوجها في مهاوي الضيق بكثرة مطالبها ، مثل امرأة أبي دلامة التى أمرته أن يطلب إلى الخليفة المنصور أن يهبه مالاً ومزرعة. فذكر أبو دلامة ذلك للخليفة المنصور في قصيدته الشهيرة:

إن الخليط أجد البين فانتجعوا   وزودوك خبالاً، بئس ما صنعوا

إلى أن قال فيها يذكر سوء خلق زوجته ويصف جسمها وصفاً مشيناً ويصف إلحاحها عليه ، فيقول :

لا والذي ياأمير المؤمنين قَضىَ   لكَ الخلافةَ في أسبابها الرَّفَعُ

مازِلتُ أخلصها كسبي فتأكلهُ … دوني ودون عيالي ثم تضطجعُ

شوهاء مَشْنَّية في بطنها بجرٌ … وفي المفاصل من أوصالها فدعُ

ذكرتها بكتاب الله حرمتنا … ولم تكن بكتاب الله ترتدع

فاخرَنطمت ثمّ قَالتْ وهي مغضبةٌ … أأنت تتلو كتاب الله يا لُكَعُ؟!!

أخرجْ لتبغِ لنا مالاً ومزرعة … كما لجيراننا مالٌ ومُزْدَرَعُ

واخدع خليفتنا عنا بمسألة … إن الخليفة للسؤل ينخدع

فضحك المنصور، وقال لرجاله: أرضوها عنه ، واكتبوا لها ستمائة جريب عامرة وغامرة (الجريب: قطعة معينة من الأرض، والعامرة: المزروعة والغامرة: البور)

فقال أبو دلامة: أنا أقطعك يا أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب غامرة من الحيرة الى النجف وإن شئت زدتك!!

فضحك المنصور وقال: اجعلوها كلها عامرة !!.

البقاء للأصلع !!!

ذم الشعراء الشيب كثيراً ، ولكنهم لم يكثروا القول في ذم الصلع مع أن الصلع قد يكون داعية لقبح المنظر أكثر من الشيب ، وربما كانت قلة الشعر في ذم الصلع راجعة إلى طبية الشعوب العربية في تغطية الرؤوس بالعمائم وما يقوم مقام العمائم من أغطية فلم يكن منظر الصلع من المناظر المألوفة أمام أعين الشعراء النقاد بعكس الشيب الذي يظهر في السوالف وفي القفا وفي اللحى والشوارب ، فالصلع مستور، والشيب – إن لم يصبغ – لا يمكن ستره .

ولما كانت اللغة العربية تتميز بدقتها البالغة في تحديد معاني الألفاظ المتقاربة ، فإننا نجدها قد فرقت بين الألفاظ التى تعبر عن حالات مختلفة تكون عليها الرأس على نحو ما نراه عند الثعالبى في فقه اللغة حين فرق بين الكلمات التالية :

- **الأنزع** : وهو الذي انحسر الشعر على جانبي جبهته .
- **الأجلع** : وهو الذي زاد انحسار الشعؤ على جانبي جبهته إلى حد أكبر.
- **الأجلى** (**أو الأجله**) : وهو الذي بلغ انحسار الشعر في نصف رأسه .
- **الأصلع** : وهو الذي زاد انحسار الشعر عن نصف رأسه.
- **الأحصّ** : الذي لم يبق في رأسه شعر.

- *الأقرع* : الذي ذهبت بشرته مع شعره .

ولكن وصف الرأس بالصلع فيه قدر من الفكاهة لما يثيره هذا الوصف من المشاعر الضاحكة وخصوصاً إذا اقترن الصلع بالشيب فأصبح ذلك دليلاً على تقدم العمر بالإنسان وزهد النساء فيه كما قال رؤبة واصفاً دهشة محبوبته سلمى من صلعه واستنكارها أن يكون هذا الصلع إلا امتداداً للجبين :

قال سُليمى : والكبير يصلع ؟ ما رأس ذا إلا جبينٌ أجمعُ !

ويقال للرأس أصلع ، ويقال كذلك هامة صلعاء وجمعها هام صُلْع كما ورد في قول عمرو بم معد يكرب :

وَسْوقُ كتيبةٍ دَلَفَتْ لأُخرى كأن رُهَاءَها رأسٌ صليعُ

ويوصف اليوم الشديد الحر بأنه يوم أصلع كما جاء في الشعر :

يا قِردةً خشيتْ على أظفارها حرَّ الظهيرة تحت يومٍ أصلعِ

وأما المرأة التي ذهب شعرها فقد يقال لها : صلعاء ، زعراء ، قزعاء ، والصلعاء اسم للداهية الشديدة ، ولهذا اعترض بعض علماء اللغة على وصف المرأة بها ، ومالوا إلى وصفها بالزعراء والقزعاء .

وقد تندر الشعراء بالصلع إذا اقترن بكبر السن واحدودا ب الظهر وابيضاض ما تبقى من شعر الرأس واللحية ، فهذا عبد الرحمن بن أبي شريح الأنصاري من الخطباء والشعراء المعمرين (ت : ١٠٠ هـ)

يقول : إن قيامة الرجل تقوم إذا حدثت به ثلاث علامات :

إذا رأيــــت صــــلعاً في الهامــــةْ
وحَـــدَباً بعـــد اعتـــدال القامــــةْ
وصـــار شـــعر الـــرأس كالثـُّغامة
فايْـــأس مـــن الصـــحة والســـلامة
وعـــد إلى التوبـــة والندامــــة
فقـــد – عليـــك – قامـــت القيامــــة

(الثغام : نبات في الجبال يبيضُّ إذا يبس ويشبه به الشعر الأشيب)

وهذا شاعر آخر يجزع من الصلع ويرى أن الشيب أفضل منه لأن الشيب يمكن ستره بالخضاب ولكن الصلع لا علاج له :

في الشيب عافيةٌ ما لم يكن صلعُ   فـإن ذاك وذا بلـوى إذا اجتمعـا
لون المشيب إذا مـا شئت يستره   لونُ الخضاب فماذا يستر الصلعا ؟

وهذا أبو الحسن المدني – وقيل المزني – أصابه الصلع وهو ابن أربعين سنة فراح ينوح :

فهـــلْ تـــرى بعـــد المشـــيب والصـــلعْ
لابـــن ثلاثـــين وعشـــرٍ مـــن طمـــعْ ؟
يَرْتَـــعُ والـــدهر يغـــرِّي مـــا رَتَـــعْ
فهـــل تـــرى يُغـــني الحِـــذارُ والجـــزعْ
إذا الفتـــى عـــاين شـــيئاً قـــد طلـــعْ
كأنمـــا عـــاين هـــول المُطَّلـــعْ

أي أنه يائس من أي أمل بعد أن غزا الشيب ما تبقى من رأسه وداهمه الصلع فلم يعد ينفعه الحذر بعد أن ظهرت عليه إمارات تقدم العمر ولم يعد فيه مطمع للغواني .

ويضيف علي بن الجهم رجلاً قضى عمره معاقراً للخمر حتى إذا ما أصابه الشيب والصلع ورأى صورته منعكسة على صفحة الخمر في الكأس أحس بدنو الأجل فأقلع عن الخمر في الحال :

وَغَطَتَـــــــــهُ الكـــــــــأسُ أرتعهـــــــــا
زجرتـــــــه فـــــــانتهى عنهـــــا ولــــــو
وأرتْـــــــه الشـــــيبَ فيهـــــا والصـــــلعْ
غيرهـــــا يـــــردع عنهـــــا مـــــا ارتـــــدعْ

وينظر ابن الرومي إلى الصلع نظرة إلى الصلع نظرة أخرى فهو يصف الرأس الصلعاء بأنها تشبه المرآة في لمعانها وبريقها فهو يهجو قائلاً :

يـــــا صـــــلعةً لأبـــــي حفـــــصٍ ممـــــردةً
كـــــأن ســـــاحتها مـــــرآة فـــــولاذ

ومع ذلك فهناك من الشعراء من نظروا إلى الصلع وقرينه الشيب على أنهما من علامات الهيبة والمكانة فهذا شاعر يصف ممدوحه بالشجاعة والحكمة فيقول :

" يلوح في حافات قتلاه الصلعْ "

أي أنه يتجنب الأوغاد ولا يتقل إلا الأشراف من الناس المعمرين لأن أكثر الأشراف – كما يقول ابن منظور – وذوي الأسنان صلع كقول الشاعر :

فقلتُ لها لا تنكريني فقلَّما   يسود الفتى حتى يشيبَ ويصلعا

فهو يعاتب حبيبته التى أنكرت شيبه وصلعه ويؤكد لها أن الشيب والصلع علامتان من علامات الهيبة التي ترشح أصحابها للعز والسيادة .

وجع في ظهر شاعر ..!!

الشعراء من أكثر الناس حباً في الشكوى من زوجاتهم ، أو من عشيقاتهم ، أو من الأطباء ، أو من الفقر وسوء الحال ، أو من سوء أحوال منازلهم وكثرة ما بها من براغيث ، أو تداعي بيوتهم الآيلة للسقوط ، أو من فساد الزمان بوجه عام حين يعجزون عن معرفة سبب آلامهم .

ولكننا هنا سنقف مع طائفة خاصة من الشعراء الشكَّائين البكَّائين وهو أولئك الذين بلغوا من العمر أرذله ، وطال عليهم الأمد كما طال علي لُبد – أحد نسور لقمان يضرب له المثل في طول العمر – فصاروا يشتكون من ضعف أبصارهم أو تحول أجسادهم أو تهرؤ عظامهم ، ولكن أكثر شكواهم طرافةً هي الشكوى من انحناء الظهر بوصفه أوضح دليل على الشيخوخة والاقتراب من محطة الوصول المرعبة (الموت) فهذا أبو حية النميري يقول إنه كان يمشي على رجْلين فأصبح – بعصاه – يمشى على ثلاثة أرجل :

وقد جعلتْ إذا ما قمتُ أوجعني ظهْري فقمتُ قيام الشارب السكرِ
وكنتُ أمشي على رِجْلين معتدلاً فصرتُ أمشي على أخرى من الشجرِ

وهذا أعرابى من بنى تميم يرى أنه لا عيب فيه يمكن أن يشينه سوى هذا الوجع الدائم في ظهره الذي جعله يألف عصاه فتبدو عليه بسببها علائم الشيخوخة وإمارات الزمن :

وما بيَ من عيب الفتى غير أننى أَلِفْتُ قناتي حين أوجعني ظهري

وهو يرى حمل العصا عيباً من عيوب الفتى لأن العادة أن حامل العصا محفوف بالوقار فلا يُسْتَحبُّ منه أن يلهو أو يتغزل كما قال شاعر آخر :

إذا دببتَ على المنسأةِ من كبرٍ فقد تباعد عنك اللهو والغزلُ

المنسأة : العصا

وكما قال حين تقدمت به السن :

رأيت الغانيات نفرن مني نفور الوحش من رامٍ مفيقِ
رأين تغيُّري وأردن لَدْناً كغصن البان ذي الفنن الوريقِ

فالشعراء يشغلهم كثيراً أن تزهد فيهم النساء بسبب كبر السن حتى أبو العتاهية المشهور بزهده يقول متحسراً :

عريتُ من الشباب وكان غضّاً كما يعرى من الورق القضيبُ
ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ

ويفسر لنا عروة بن الورد سر كراهية كبر السن واستعمال العصا فيقول : إن الإنسان إذا تقدمت به السن واعتمد على العصا أمن أعداؤه شره لأنه لم يعد قادراً على القتال ، وزهد فيه أهله لأنه أصلح عبئاً عليهم في خدمته ، يقول عروة متذكراً مصيره :

أليس ورائي أن أدب على العصا فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي ؟

وهذا الأعشى بن ربيعة يتحسر على حاله فيقول مخاطباً زوجته أو حبيبته إن جاز أن نتخيل أن له حبيبة في هذا العمر : إنني وإن كنت الآن منحنى الظهر أسير متوكئاً على عصاي ، فطالما مشيتُ مشية الشباب المختال الذي يسير ملتوياً من

شعوره بالقوة حتى لكأن بع عرجاً ، ولكن الزمن ما زال يساومني وأوساومه حتى أخذ شبابي :

فأما تريني حليف العصا ... فقد كنتُ من وثبة خامعاً
فساومني الدهر حتى اشترى ... شبابي وكنتُ له مانعاً

والشاعر المخضرم لبيد بن أبي ربيعة كان من أكثر الشعراء معاناة من آلام ظهره الذي انحنى بسبب تقدم عمره ومما يروى له عندما بلغ عشراً ومائة سنة قوله :

أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزوم العصا تُحني عليها الأصابع؟
أُخبِّر أخبار القرون التي مضتْ ... أَدِبُّ كأني كلما قمتُ راكعُ!

وهذا شاعر آخر أصابه الكبر وحنى ظهره ، فهو يسير كأنه صياد يتحين الفرص لصيد ثمين ، فهو يسير منحنياً مقترباً من الأرض حتى لا تنتبه الفريسة :

حنتني حانيات الدهر حتى ... كأني حابلٌ يدنو لصيدِ

والعرب تعبر عن اعتدال قامة الرجل "بالقناة" وهو تشبيه دقيق فالقناة إلى جانب اعتدالها قوية صلبة ، ولذلك نرى الشعراء الذين التوت ظهورهم يعبرون عن هذا المعنى مستخدمين ذلك التشبيه السائد فيقول أحدهم :

قَصَرَ الحوادثُ خَطْوَهُ فَتَدَانَى ... وحَنَيْنَ صدرَ قناتهِ فَتَحَانَى
صَحِبَ الزمانَ على اختلاف فنونه ... فأراه منه شدةً ولِيَانا
ما بال شيخٍ قد تخدَّد لَحْمُه ... أنضى ثلاث عمائمٍ ألونا
سوداءَ داجيةً وسَحْقَ مُفَوَّفٍ ... وأجدّ أخرى بعد ذاك هِجَانا

والعمائم الثلاث التى أفناها ذلك الشيخ مختلفة الألوان كناية عن ثلاثة أحوال لشعر رأسه حين يكون أسود فاحماً ثم مختلط البياض بالسواد في أول الشيخوخة ثم ناصع البياض حين يغمره الشيب غمراً .

وقال عمرو بن قميئة :

كانت قناتي لا تلين لغامزٍ ... فألانها الإصباحُ والإمساءُ

ودعوتُ ربي بالسلامة جاهداً ... ليُصِحَّنى فإذا السلامة داءُ

وهل يرد الدعاء العمر الذي ولى ؟ ويدفع الشيخوخة التى هجمت ؟

ويروون أن عبد الملك بن مروان قال لرجلٍ من المعمرين يدعى العريان بن الهيثم يوماً : كيف تجدك يا عريان ؟

قال : أجدنى يا أمير المؤمنين قد أبيض مني ما كنت أحب أن يسودّ ، واسودّ مني ما كنت أحبّ أن يبيضّ ، واشتد مني ما كنت أحب أن يلين ، ولان مني ما كنت أحبّ أن يشتد ، ثم أنشد راجزاً :

سلني أنبئك بآيات الكبرْ ... نوم العشاء وسعال بالسحرْ

وقلة النوم إذا الليل اعتكر ... وقلة الطعم إذا الزّاد حضرْ

وسرعة الطرف وتحميج البصر ... وتركك الحسناء من قبل الظهرْ

والناس يبلون كما تبلى الشجرْ

(التحميج : تصغير العين لتمكينها من الرؤية ، أو إدامة النظر ف فتح العينين)

فهذا المعمر يعدد علامات الكبر على هذا النحو :

١- النوم المبكر عند آذان العشاء .

٢- السعال الدائم قبيل الفجر.

٣- الأرق طول الليل .

٤- قلة الأكل .

٥- سرعة انغلاق العين وانفتاحها.

٦- الزهد في النساء .

وهذه العلامة الأخيرة في هذه الأبيات يرويها الرواة بروايتين الأولى التى اخترناها والتي تدل على أنه من شدة زهده في النساء يتغافل عن المرأة الحسناء من قبل الظهر ، والرواية الثانية تجعل الظاء طاء وتدل على أنه يهرب من معاشرة المرأة من قبل أن تتطهر من حيضها .

ويبكي شاعر آخر على نهايته المؤلمة وقد بلغ السبعين من العمر ولا يرى لنفسه علاجاً إلا الموت بعد أن بلي شبابه وتقوس ظهره ولعبت به الأيام واقترب من لقاء خالقه :

إذا كانت السبعون سنَّك لم يكن ... لدائك – إلا أن تموت – طبيبُ

وإن امرأً قد سار سبعين حِجَّةً ... إلى منهلٍ من ورده لقريبُ

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقل ... خلوتُ ولكن قل : عليّ رقيبُ

إذا ما انقضى القرنُ الذي أنت منهمُ ... وخُلِّفْتَ في قرْنٍ فأنت غريبُ

وهذا أعرابى آخر أكثر واقعية فهو يصف حال العجوز وصفاً دقيقاً وكأنه يشخص لنا حالةً مرضيةً مستعصيةً فهو يقول : إن الرجال إذا صاروا جدوداً – أي

صار لهم بنون وحفدةً – واضطربت أجسادهم ، وأصبحت الأمراض ضيوفاً دائمة التردد عليهم فإنهم يشبهون – والحالة هكذا – زروعاً أينعت وحان قطافها :

إذا الرجـــال ولـــدت أولادهـــا   واضـطربت مـن كـبر أعضـادها
وجعلـــت أســـقامها تعتادهـــا   فهـي زرع قـد دنـا حصـادها

وهذا شاعر يشكو انحناء ظهره نتيجة إسرافه على نفسه في شبابه فيقول متندما :

هزئـت عميرة إذ رأت ظهري انحنى   ونؤبتـى علـت بمـاء خضـاب
لا تهزئـــي مـــني عمـــير فـــإنني   أنفقت فيكم شرتي وشبابي

ولم تقتصر شكوى انحناء الظهور على الرجال من الشعراء ، بل نجد نساء شواعر يشكون انحناء ظهورهن مثل الشاعرة مريم بنت أبي يعقوب التي ذكرها ابن دحية في كتاب المطرب من أشعارأهل المغرب وقال: أديبة شاعرة جزلة مشهورة، تعلم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها.

وعمرت عمراً طويلاً، سكنت أشبيلية وشهرت بها بعد الأربعمائة.

وذكرها صاحب المغرب ، وقال : من أهل المائة الخامسة. ومن شعرها وقد كبرت :

ومـا يرتجى مـن بنـت سبعين حجـة   وسـبع كنسـج العنكبـوت المهلـهل؟
تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصى   وتمشي بهـا مشي الأسد المكبـل!!

هؤلاء الشعراء . . . . فضحوا ضيوفهم !!!

من فنون اللياقة المعاصرة (الإتيكيت) أن يتناول الإنسان طعامه بصورة مقبولة اجتماعياً ، غير منفرة لجلسائه على المائدة ، بحيث لا يصدر منه - في أثناء الأكل - صوت ، ولا ينتثر من فمه طعام هنا وهناك ، ولا يمد يده إلى ما يكون أمام غيره من طعام .

وهذه الآداب العصرية ، سبق بها الإسلام ، بل سبقت بها الطبيعة العربية ذات الذوق المرهف ، والحس النبيل .

ومن هنا فقد تفنن الشعراء العرب - قديماً وحديثاً - في نبذ الشَّرَه وذم الانكباب على الطعام بصورة حيوانية .

وبالغوا في السخرية من كل أكول ضخم الأشداق ، واسع الأمعاء ، يجوع بعينيه قبل أن تجوع معدته ، ويهجم على الطعام كأنه يخوض حرباً ضروساً ولسان حاله يردد مقولة شكسبير (أكون أو لا أكون تلك هي القضية!) غير أنه يحورها لتصبح : أكول، أو لا أكول ، ذلك هو الفيصل في هذه الموقعة التاريخية الحاسمة !! .

فهو يرى كل وجبة - في غير داره - حرباً لا بديل أمامه إلا كسبها وسحق خصومه فيها .

ومن الصور الساخرة التي جادت بها قريحة ابن الرومي - وهو المعروف بإقذاعه في الهجاء وتفننه في السخرية - صورة ذلك البصري الأكول الذي يهجم على الطعام حريصاً على افتراسه كأنه وكيل أيتام ، أو لص قبور ، وهذا الأكول لا يخشى

أن يهجوه أحد لأنه يهدد الإنس والجن والطير والوحش . وإنه ليبلغ من الشره أن لو حاول بلع جبال تهامة لبلغ من ذلك ما يريد .

يقول ابن الرومي :

وأما يد البصري في كل صفحة ... فأقلع من ميلٍ وأغرفْ من رَفْش

يبادر في قلع الطعام كأنه ... وكيلْ يتيم أو مريب على نبش

سأنقش سطراً بيّناً في جبينه ... بأن له فصّي زجاج بلا نقش

سهوتْ أقيلوني فإني مغفلٌ ... وإن له شأناً أجلّ من الحرش

أأوعده بالشعر وهو مسلطٌ ... على الإنس والجان والطير والوحش؟

ألم أرَ لو شاء بلع تهامةٍ ... وأجبالها طاحت هناك بلا أرش؟

ويستخدم ابن الرومي في وصف صاحبه مفردات فارسية - وهذا معهود في شعره إلى حد يمكن رصده - فيصف بلاعيمه بأنها (دهنشار) بمعنى فم الفسق أو الفحش أي أنها معيبة ، وأنها (دُردُور) أي تشبه دوامة الماء التي تدور حول نفسها فيقول :

أعذني من تلك البلاعيم إنها ... دهنشار والدُّردور ياصاحب العرش

يغير على مال الوزير وآله ... فينفش في رغفانهم أيما نفش

ومن الحيل الخبيثة لهذا الرجل الأكول الشره ، أنه كلما رأى صديقاً له سارع يشكو إليه آلام أضراسه وأسنانه التي أخنى عليها الدهر فضعفت وتكسرت ويحذرنا ابن الرومي من أن تنطلي علينا تلك الحيلة الخبيثة . فما هي إلا ستار :

على أنه ينعي إلى كل صاحبٍ ضروساً له تأتي على الثور والكبش
يخبّر عنها أن فيها تثلُّما وذلكم أدهى وأوكد للجرش
ألم تعلموا أن الرحى عند نقرها وتجريشها تأتي على الصلب والهش؟
فلا تقبلوا ذاك التفارق واحذروا شباه ، ولو أمسى مسجى على نعش

وننتقل من ابن الرومي إلى ابن هانئ الأندلسي الذي نراه يخصص قصيدة كاملة في وصف صاحب له أكول جشع كأنما تسكن الثعابين فمه ، فهو لا يمضغ طعامه بل يزدرده ازدراداً . فإذا فتح فمه هالك ما ترى فيه من سعة كأنه ميدان من الميادين ، وليس فماً كالأفواه المعهودة .

إن لهاته (اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم) وهي مفتوحة تشبه جهنم التي يقذف إليها بالحجارة والكفار فتقول هل من مزيد؟ :

انظر إليه وفي التحريك تسكين كأنما التقمت عنه التنانين
يا ليت شعري إذا أومي إلى فمه أحلقه لهوات أم ميادين
كأنها وخبيث الزاد يضرمها جهنم قذفت فيها الشياطين

ويرى ابن هانئ في فكي صاحبه زوجاً من الطواحين ، أو مخزناً من مخازن الفراعنة التي كانوا يكدسون فيها الأسلحة الفتاكة ليحاربوا بها رسل الله :

تبارك الله ما أمضى أسنّته كأنما كل فك منه طاحون
كأن بيت سلاح فيه مختزن مما أعدته للرسل الفراعين
أين الأسنة أم أين الصوارم أم أين الخناجر أم أين السكاكين

ويصف لنا ابن هانئ طريقة صاحبه في الأكل : فهو يمسك بالحمل المشويّ فيقذفه في جوفه كأنه يونس حين التقمه الحوت ، ويمسك الجداء (جمع جدي صغار الماعز) المشوية فيلف أيديها مع أرجلها فيقذفها في جوفه كما تفعل الذئاب

أما طريقته في التهام البط والإوز فعجيبة حقاً ، فهو كالشاهين (الطائر المفترس) يهوي عليها فيأخذها آحاداً ومثنى ، وأصوات أسنانه وهي تطحنها تعزف ألحان الطرب والتنغيم :

كأنما الحمل المشوي في يده ذو النون في الماء لما عضه النون
لف الجداء بأيديها وأرجلها كأنما افترستهن السراحين
وغادر البط من مثنى وواحدة كأنما اختطفتهن الشواهين
يخفضّ الوز من قرن إلى قدم وللبلاعيم تطريب وتلحين

ثم يحذر ابن هانئ الناس من صاحبه الأكول بعد أن فزعت من مجالسته البغال والحمير وأهابت بأصحابها أن يهربوا قبل أن يفترسهم ذلك الطاحون المهلك الذي لايرتوي ولو شرب نهر الفرات ولايشبع ولو أكل كل ما حملت سفينة نوح :

قوموا بنا فلقد ريعت خواطرنا وجاذبتنا الأعنات البراذين
نصحتكم فخذوا من شدقه وزراً أو لا فأنتم سويق فيه مطحون
فليس ترويه أمواه الفرات ولا يقوته فلك نوح وهو مشحون

وفي تراثنا الشعري القديم قصيدة بديعة لا مثيل لها في بابها ، رواها لنا الثعالبي في يتيمة الدهر ، وهي للشاعر الماجن أبي القاسم الواساني وتقع في ١٩٦ مئة وستة وتسعين بيتاً من روائع الشعر العربي ، وفيها يصف نكبة حاقت به في وليمة

عملها في داره التي يقيم فيها في قرية قرب مدينة دمشق فناله من أصحابه أذى كبير يفتتحها بقوله :

من لعين تجود بالهملان	ولقلب مدلَّهٍ حيران
يا خليليّ أقصرا عن ملامي	وارثيا لي من نكبتي وارحماني
من عذيري من دعوة أوهنت	عظمي وهدّت بهولها أركاني؟

وفي أكثر من عشرين بيتاً يصف أبو القاسم الواساني بواكير المؤامرة ، حين وجه الدعوة لأصحابه ، فلم يقصروا في تلبيتها على أتم صورة فدعوا جميع معارفهم من سائر البلاد : من الروم وصقلية والسند والهند وبلغاريا والبلقان وبادية الحجاز وبادية نجد ومن سائر الملل والأديان وأجاعوا بطونهم ثلاثين يوماً ثم جاءوا إليه بهذا الجيش العرمرم ذي الأسنان المسنونة :

جمعوا لي الجموع من خيل جيلا	ن وفرغانة إلى ديلمان
ومن الروم والصقالب والتر	ك وخلقاً من بلغر واللان
ومن الهند والطماطم والبر	بر والكيلجوح والبيلقان
لم يبقوا ممن عددت من الآ	فاق من مسلم ولا نصراني
والبوادي من الحجاز إلى نجـ	ـد معديها مع القحطاني
كل ضرب فمن طوال ومن حد	ب قصار والحول والعوران
وشيوخ مثل الفراخ وشبا	ن رحاب الأشداق والمصران
معد جوعت ثلاثين يوماً	بسلاح شاك من الأسنان

ويصف لنا الواساني شعوره لحظة قدومهم إليه ومباغتتهم إياه فلما رآهم كاد يغمى عليه بمجرد رؤية هزا الجيش الجرار من الجائعين :

ما شعرنا ونحن من آمن — العالم إلا بصرخة الديدبان
لست أنسى مصيبتي يوم جاءوني — وقد غصّ منهم الواديان

ويصف ما كان في بيته من أخشاب للتدفئة ومن زروع وضروع وألبان ولحوم وشراب راح ضحية تلك الهجمة الشرسة لهذا الجيش العرمرم .

وقد كان لهذا الجيش من الضيوف زعيمان أحدهما من بني هاشم :

هو نمس الدجاج والبط والأوز — وذئب النعاج والخرفان

والثاني أخوه واسمه الفضل وهو ضخم الجثة لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه أمام المائدة :

لست أنساه جاثياً جاحظ العيـ — ـن عبوساً في صورة الغضبان
كالعقاب الغرثان يقتنص اللحـ — ـم ويهوي إلى طيور الخوان
كلما شقق الفراريج شققـ — ـت لغيظي من فعله قمصاني
وهو في أمره مُجِدٌّ رخيٌّ الـ — ـبال لم يعنه الذي قد عناني
مجرهد كالسوس في الصوف في الصـ — ـيف بقلب خال من الإيمان
قلت قل لي يا ابن المبشر ما شأ — نك من بين من غزني وشاني
ليس هذا من شهوة الأكل هذا — من طريق البغضاء والشنآن

وينقل لنا الواساني حواراً دار بينه وبين أحد هؤلاء الذين ينكبون على الطعام والشراب بلا هوادة فيقول :

قلـت للفيلسـوف لمـا غـدا في الـ أكـل أعـني فتـى أبـي عـدنان
واستحث الكؤوس صرفاً بلا مز ج مكبــاً كالهــائم العطشــان
ليـت شـعري أمـن رسـائل بقـرا ط تعلمـت ذا وسـجع الكهـان
أنـت تـزداد يـا خليلـي بهـذا الـ ـفعل علمـاً بالعـالم الروحـاني

ويصف رجلاً آخر من بلاد (فرغانة) [أوزبكستان حالياً] فيقول إنه مع عجمة لسانه أفصح من أفصح خطباء العرب :قس بن ساعدة وسحبان بن وائل غير أن فصاحته التي يقصدها شاعرنا إنما هي في الأكل لا في الخطابة :

ثـم لا تـنس مـا لقيـت ومـا مـر لشـؤمي مـن عسـكر الفرغـاني
أعجمـي اللسـان أفصـح مـن قـ ـسٍّ إذا مـا نشـا ومـن سـحبان

ويصف جسم ذلك الرجل فيقول إنه طويل ضخم قليل الفهم والعقل ويدعو الله ألا يميته حتى يرى ذلك الرجل وقد هده المرض فأخذ من طوله شبرين :

رجــل كــالفنيق فــدم بــلا لــ ـب طويـل في صـورة الشـيطان
يقـأ كـالعمود يسـتعذب الصفـ ـع ورأس أصـم كالسـندان
زائـد الخلـق نـاقص العقـل والديـ ـن غلـيظ القـذال كالقلتـان
يبلـع الطيبـات بلعـاً بـلا مضـ ـغ ويحسـو النبيـذ كالثعبـان
لا تمـتني حتـى أراه وقـد قصـ ـر مـن فضـل طولـه شـبران

ثم يصف آثار تلك الغزوة على وجه الإجمال فيقول إن ضيوفه تركوه فقيرا جائعا عاريا لايعي محدثه وإذا سمع فإنه لايفهم :

أفقرونـي وغـادروني بـلا دا ر، ولا ضـيعة، ولا بسـتان
حيرونـي ودلهـوني فقـد صـر ت بليـداً كالـذاهل السكران

أسمع اللفظ كالطنين لسهوي وهو لفظ يجري لغير معاني
تركوني يا قوم أفقر من فر خ وأعرى ظهراً من الأفعوان

ويقدم لنا الواساني إحصائية أو كشف حساب بما تم إفناؤه في تلك الوليمة من خبز ودقيق وبن ومعز وضأن ودجاج وأسماك وبيض ومخلل وتفاح وغير ذلك فيقول :

أكلوا لي من الجرادق ألفيـ ـن بـبن تشتاقه العارضان
أكلوا لي أضعافها غير مسطو رومالوا إلى سميد الفران
أكلوا لي من الجداء ثلاثيـ ـن قريصاً بالخل والزعفران
أكلوا ضعفها شواء وضعفيـ ـها طبيخاً من سائر الألوان
أكلوا لي تبالة تبلت عقـ ـلي بعشر من الدجاج السمان
أكلوا لي مضيرة ضاعفت ضر ي ببرس الجداء والعصبان
أكلوا لي كشيكة قرحت قلـ ـبي وهاجت لفقدها أشجاني
أكلوا لي سبعين حوتاً من النهـ ـر طرياً من أعظم الحيتان
أكلوا لي عدلاً من المالح المشـ ـوي ملقى في الخل والأنجدان
أكلوا لي من القريشاء والبر نـي والمعقلي والصرفان
ألف عدل سوى المصقر والبر دي واللؤلؤي والصيحاني
أكلوا لي من الكوامخ والجو ز معاً والخلاط والأجبان
ومن البيض والمخلل ما تعـ ـجز عن جمعه قرى حوران
فتتوا لي من السفرجل والتـ ـفاح والرازقي والرمان
والرياحين ما رهنت عليه جبتي عند أحمد الفكهاني

درسوا لي من البنفسج والنر جس ما ليس مثله في الجنان
ذبحوا لي بالرغم يا معشر النا س ثمانين من معيز وضان
ما كفاهم ما مر من غنم القر ية حتى أخذوا على الثيران
ذبحوها والدمع يجري على خد ي انسياباً مثل انسياب الجمان
أكلوا كل ما حوته يميني وشمالي وما حوى جيراني

وتكون المفاجأة في نهاية الوليمة أليمة حقاً حيث يقول الواساني :

ثم لما أتوا على كل شيء ختموا محنتي بكسر الأواني

شعراء ظلمتهم ألقابهم !!

الألقاب كما قال العلماء ثلاثة:

١. لقب تشريف: مثل: الفاضل ، الأفضل ، الصالح ، الواثق ، ...

٢. ولقب تعريف: مثل: الجاحظ، والأعشى، والأعمش.

٣. ولقب تسخيف: يراد به السخرية من صاحبه .

واللقب اسم يطلق على إنسان بخلاف اسمه الذي سمِّي به يوم ولد. ويغلب أن يكون لكل إنسان: اسم، وكنية، ولقب. فالاسم هو ما سماه به أبواه يوم مولده والكنية هي ما صُدِّر بأب أو أم ، واللقب هو ما عرف به وشاع عنه. فمثلاً: "أبو حفص الفاروق عمر بن الخطاب" يتضمن الكنية، واللقب، والاسم على الترتيب.

والسطور القادمة تتناول ألقاب تسخيف لشعراء التصقت بهم هذه الألقاب ولعلها أساءت إليهم لكنها مثيرة للسخرية والاستهزاء.

وإن كان بعضهم يعمد إلى اللقب السيئ يلصق به، فيصوغه شعرًا في بيت أو بيتين متفاخرًا به، فيعفي نفسه من عناء السخرية والهزء. فمن هؤلاء الشعراء ذوي الألقاب الغريبة:

١- **الوَرَنْ** :

هذا لقب غريب لقب به عبد الله بن عمر بن نصر الله الأنصاري، كان طبيبًا وواعظًا، وفقيهًا، وكان معروفًا بخفة ظله، وحلاوة مجالسته، أقام ببعلبك مدة، ثمَّ انتقل إلى القاهرة ومات بها سنة ٦٧٧ هـ. وقد وردت ترجمة له في "تاريخ الإسلام"

للذهبى، و"السلوك" للمقريزي، و"النجوم الزاهرة" لابن تغري بردي، و"الوافي بالوفيات" للصفدي .. وغير ذلك من كتب الطبقات.

ترجم له صاحب " المنهل الصافي" ترجمة وافية فقال :

هو عبد الله بن عمر بن نصر الله، الأديب الفاضل الحكيم موفق الدين أبو محمد الأنصاري، المعروف بالورن.

كان قادراً على النظم، له مشاركة في الطب والوعظ والفقه، وكان حلو النادرة، لا تمل مجالسته، أقام ببعلبك مدة، وخمس مقصورة ابن دريد مرثية في الحسين رضي الله عنه وتوفي سنة سبع وسبعين وستمائة.

من شعره :

يا سعد إن لاحت هضاب المنحني ... وبدت أثيلاتٌ هناك تبين
عرج على الوادي فإن ظباءه ... للحسن في حركاتهن سكون

وله :

حار في لطفه النسيم فأضحى ... رائحاً نحوه اشتياقاً وغادي
مذ رأى الظبي منه طرفاً وجيداً ... هام وجداً عليه في كل وادي

ومن شعره في الغزل قوله:

تجور بجفنٍ ثمَّ تشكو انكساره ... فواعجبًا: تعدو عليَّ وتستعدي!!
أحمِّل أنفاس القبول سلامها ... وحسبي قبولاً حين تُسعف بالرد
تثنت فمال الغصن شوقًا مقبِّلاً ... من الترب ما جرَّت به فاضل البُرد

وقال متحسرًا على أيام قضاها مع بعض أحبابه، وهو يستخدم في هذين البيتين تضمينًا لأسماء بعض كتب الفقه الشهيرة (المجموع)، و(المختصر). وهذا لون من التكلف الذي شاع في شعر ذلك العصر الأيوبي:

لله أيامنا والشمل منتظمٌ ... نظمًا به خاطرُ التفريق ما شَعَرا
وا لَهْفَ نفسي على عيش ظفرت به ... قطعتُ "مجموعه" المختار "مختصرا"

ومن شعره يتغزل في فتى بدأت لحيته في الظهور، فشبهها بالنمل الذي يدب فوق خديه، ويحرص الشعراء على حبه والهيام به، مستخدمًا التورية فالشعراء والنمل اسمان لسورتين متجاورتين من سور القرآن الكريم (٢٦، ٢٧) يقول الورن :

أنا أهوى حلو الشمائل ألمي ... مشهد الحسن جامع الأهواء
آية "النمل" قد بدت فوق خدَّيه ... فهيموا يا معشر "الشعراء"

وفي الجملة فإن شعر "الورن" متوسط القيمة، ضعيف التأثير.

٢. ابن خروف:

هو أبو الحسن، نظام الدين، علي بن محمد بن محمد، الأندلسي، غلب عليه لقب أن خروف، أحد النحاة المعروفين، وكان له مؤلفات في علوم عدة، منها: الأصول والمواريث (الفرائض)، ولكن شهرته في علوم النحو والعربية فاقت شهرته في غيرهما من العلوم. فقد ألَّف في فنون العربية مؤلفات عديدة، منها شرحه لكتاب سيبويه، وشرحه لكتاب (الجُمل) وقد درَّس في الأندلس وفي حلب، وتوفي عام ٦٠٩ هـ. وترجمته في "وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"البداية والنهاية" لابن كثير، و"عقود الجمان" لابن الشعَّار، "والمُغْرب" لابن سعيد، و"بغية الوعاة" للسيوطي.. وغيرها.

ولم يكن ابن خروف يخجل من هذا اللقب الغريب الذي اشتهر به، بل إنه جعله مادةً يتفكه بها في أشعاره، فقد كان له صديق من كبار القوم يدعى نجم الدين بن اللهيب دعاه يومًا إلى طعام، فاعتذر عن عدم الحضور ببيتين من الشعر ظريفين، فالداعي هو ابن اللهيب، والمدعو هو ابن خروف.

ولو أنه لبى الدعوة فسوف يهلك حرقًا فهو يقول:

ابن اللهيب دعاني ... دعاءَ غير نبيهِ
إن سرتُ يومًا إليه ... فوالدي في أبيهِ!!

وذات مرة كتب إلى القاضي بهاء الدين بن شداد يستهديه كساءً مصنوعًا من فراء الغنم، فقال:

بهاءَ الدين والدنيا ... ونورَ المجد والحسب
طلبتُ مخافة الأنواء ... من نُعماك جِلْد أبي
وفضلك عالمٌ أني ... خروفٌ بارعَ الأدبِ
حلبتُ الدهرَ أشطره ... وفي حَلَبٍ صفا حلبي

وحدث مرةً أن كلفه القاضي محيي الدين بن الزكي الإشراف على البيمارستان النوري، وكان لهذا البيمارستان بواب اسمه "السِّيد" – بتشديد السين المكسورة- ومعناه الذئب، فاعتذر قائلاً إن الخروف يخاف الذئاب ، فقال:

مولاي، مولاي: أجرني، فقد ... أصبحت في دار الأسى والحتوف
وليس لي صبر على منزل ... بوابه "السِّيد" وجدِّي "الخروف"!!

ومن شعره في وصف نهر النيل حين زار مصر قوله:

ما أعجب النيل، ما أحلى شمائله ... في ضفتيه من الأشجار أدواح

مـن جنـة الخلـد فيـاضٌ علـى تـُرَعٍ تهـب فيهـا – هبـوب الـريح- أرْواحُ
ليسـت زيادتـه مـاءً كمـا زعمـوا وإنمـا هـي أرزاقٌ وأربـاحُ

وحدث ذات مرة أن أصدر حاكم دمشق حكمًا بحبس فتى وسيم كان عليه دَين لم يسدده. فكتب إليه ابن خروف يستشفع لهذا المحبوس الجميل فقال:

أقاضـي المسـلمين حكمـت حكمًـا أتـى وجـه الزمـان بـه عبوسـا
حبسـت علـى الـدراهم ذا جَمـال ولم تحبسـه إذ سـلب النفوسـا

٣. **أنف الكلب** :

وهذا لقب من أسوأ الألقاب، ولعله كان شؤمًا على صاحبه، فلم أعثر له على ترجمة إلا في كتاب الوافي بالوفيات للصفدي، واسمه خطاب بن المعلَّى الليثي الملقب بأنف الكلب، كان من أهل البصرة، ثمَّ وفد إلى مصر، ومدح واليها علي بن صالح بن علي الهاشمي، ويبدو أن مدحه لم يلقَ رواجًا لدى ذلك الأمير، فوعده وعودًا لم يفِ بها، فهجاه بقوله:

لعلـيٍّ بـن صـالح بـن علـيٍّ نسـبٌ، لـو يزيُنـه بالسـماحِ
ومواعيـده الريـاح فهـل أنـت بكفيـك قـابض للريـاحِ؟!

٤. **السُّمَيْسر**:

هو أبو القاسم ، خلف بن فرج الإلبيري ، الملقب بالسُّمَيْسري، له ترجمة في "المُغْرب" لابن سعيد، و"الذخيرة" لابن بسام، وغيرهما. ومن شعره يتندر على بعض من يحبون الأكل:

يـا آكـلاً كـلَّ مـا اشـتهاه وشـاتم الطـبِّ والطبيـبِ
وثمـار مـا قـد غرسـت تجـني فـانتظر السـقم عـن قريـبِ

تـــُجمِّع الـــداء كـــلَّ يـــوم أغذيـــة الســـوء كالـــذنوب

ويبدو أن قضية كثرة الأكل فوق طاقة الإنسان كانت تشغل السميسر كثيرًا فقد قال أيضًا مخاطبًا نفسه، أو أحد معارفه، موبخًا إياه لكثرة أكله كل ما يشتهي مع أن الأصل أن يقتصد في طعامه، حتى ساءت حاله، وأصبح عاجزًا عن تناول كل ما يشتهيه. فيقول:

أتأكـــــل مـــــا تشـــــتهي؟ نهيـــــت، فلـــــم تنتـــــهِ

لأكلـــــك مـــــا تشـــــتهي بقيـــــت، ومـــــا تشـــــتهي!!

وكان مقذعًا في هجائه، فهو حين هجا أبا الحسن عليًا العامري، وصفه بشدة البخل، وأنه لما جاد عليه بشيء يسير، قبله منه، لأن الدرهم من يد البخيل يساوي بدرة (أي كيسًا مملوءًا بالنقود بلغتهم آنذاك) وقد تعجب الناس حين رأوه يقبل هذا العطاء اليسير، وتعجبوا أكثر كيف جاد ذلك البخيل؟ فقال لهم إنه رقاه برقية آتت ثمارها في نفسه، وحولته من صخرة لا أمل فيها لعطاء، إلى رجل سمح، فقال السميسر:

جـــــاد نـــــزرًا فقبلنـــــا درهـــــم الســـــاقط: بَـــــدْرَةْ!

عجـــــب النـــــاس وقـــــالوا: كيـــــف نيلـــــتْ منـــــه ذرةْ؟

عملـــــتْ فيـــــه رقانـــــا فلـــــذا خـــــالف أمـــــرهْ

هـــــل رأيـــــتم بعـــــد موســـــى أحـــــدًا فجـــــر صـــــخرةْ؟!

٥. البارد:

هو أبو تمام، عبد الواحد بن الحسين بن محمد الدباس، الملقب بالبارد.

كان من رواة الحديث الشريف ، فقد رواه عن جده لأمه أبي البركات محمد بن يحيى الوكيل ، ورواه عنه آخرون.

وكان أبو تمام الملقب بالبارد ، يستغل هذا اللقب، ولا يخجل منه، فقد حدث أن جلال الدين بن صدقة- ويبدو أنه كان وزيرًا أو قاضيًا كبيرًا- احتجب عن الناس بعض الوقت ، وجاء البارد يزوره، فلم يؤذن له ، فألح في الدخول مستغلاً لقبه وكتب ورقةً وبعث بها إليه يقول فيها:

وقالوا: تحجَّب عنك مولى ... وصار له مكانٌ مُسْتخصُّ

فقلت: سيفتح الأبواب شعري ... ويدخلها؛ لأن "البرد" لصُّ!!

وقد وردت ترجمة أبي تمام البارد في "ذيل تاريخ بغداد" لابن البخار، وفي "الوافي بالوفيات" للصفدي. ومن شعره قوله:

مات أبو حامد ومات جلال الدين ... فاستحصر الهجاء والمديحُ

كنت أهجو هذا، وأمدح هذا ... فأنا اليوم خاطري مستريحُ

٦. (البطين):

هو البطين بن أُمية البجلي وكنيته: أبو الوليد،شاعر حمصيٌّ جيدُ الشعرِ. وقد ترجم للبطين بهذا اللقب العجيب الأصفهاني في "الأغاني" وياقوت في "معجم الأدباء"، وابن المعتز في "الطبقات".

وذكروا أنه كان من أطول الناس في عصره ، فقد كان طوله اثني عشر شبرًا بأتم ما يكون من أشبار الناس ، وكان يرعب من رآه؛ لطوله، وقبح وجهه.

قال ابن المعتز: "وكان إذا أقبل لا يشك من يراه أنه شيطان!!! حتى يحاوره فيصيب منه آدب الناس وأفصحهم...".

ولكن الذين أرخوا له ذكروا أنه – مع أدبه وفصاحته- كان فاسقًا، وقد أحب امرأةً يهوديةً من أهل الرملة ، فرفض أهلها أن يزوجوها إياه ، لأنه مسلم فتهوَّد ، وتزوجها ، ثمَّ عاد إلى إسلامه!! وكان جيد الشعر محكمه ، يشبه نمطه نمط الأعراب.

وهو القائل :

لم أقل عند الكريهة يا ليتني في الخفض والدعة
بل تسربلتُ الحفاظ على ميت، في الصدر لم يمت
وحسام لا يطيق صداً كانصباب الكوكب الكفتِ
وُصلتْ بالموت هبته كاتصال السم بالحمة
فهو ما أحببت من ونىٍ مطرق ما لم يهج حفتِ
يا أبا العباس ليس على جمجمات البين من صلتِ
مُنيتْ نفسي بواحدة منك لم تدرك ولم تفت
رعية العهد التي وصلت بقواها قوة المقة
فأذني من إضاعتها إن هذاك من الضعة
لم يزل شكريك متصلاً بلساني لك والشفة
فإذا قابلت معضلة كنت مصغاتي وملتفتي

ويروون أن البطين لقي عبد الله بن طاهرٍ فيما بين سلمية وحمصٍ فوقف على الطريق فقال لعبد الله بن طاهر:

مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بابن ذي الجودِ طاهرِ بن الحسينِ

مرحبــاً مرحبــاً وأهــلاً وســهلاً   بــابن ذي العــزتين في الــدعوتينِ

مرحباً مرحباً بمـنْ كفـه الـبح   رُ إذا فــاضَ مزبــد الرجــوينِ

مــا يبــالي المــأمونُ أيـده الـل   هُ إذا كنتمـــا لـــه بـــاقيينِ

أنـت غـربٌ وذاك شـرقٌ مقيمـا   أي فتــقٍ أتــى مــن الجــانبين

وحقيــقٌ إذ كنتمــا في قــديمٍ   لزُريـــقٍ ومصـــعبٍ وحســـينِ

أنْ تنــالاَ مــا نلتمــاهُ مــن المـج   دِ وأن تعلـــوا علـــى الـــثقلينِ

قال : فأمر له عبد الله بن طاهر بعشرة آلاف درهم ، فجاءَ أبو عمران فقاسمه إياها.

وله أيضاً:

ذروني وكلبـاً إنـني اليـوم إلبهـا   كمـا هـي لـي في كـل نائبـة إلـبُ

ألا لا أبـالي عتـب مـن كـان عاتبـا   يمر برأسي دون ما رضيت كلبُ

وربما احتال البطين لرزقه شأن شعراء ذلك الزمان فقد روى الشيباني عن البطين أنه قال : قدمت على علي بن يحيى الأرمينى فكتبت إليه:

رأيـت في النـوم أني راكـب فرسـاً   ولـي وصـيف وفي كفـي دنـانير

فقــال قــوم لهــم حــذق ومعرفــة   رأيــت خــيراً وللأحــلام تعــبير

رؤيـاك فسر غـداً عنـد الأمير تجـد   تعبير ذاك وفي الفـال التباشـير

فجئـت مستبشراً مستشعراً فرحـاً   وعنـد مثلـك لـي بالفعـل تيسير

قال : فوقع لي في أسفل كتابي: أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

ثم أمر لي بكل شيء ذكرته في أبياتي ورأيته في منامي.

ومما يستحسن للبطين قوله :

رمينـا خمسـة ورمـوا نُعيمـاً ... وكـان المـوت للفتيـان زينـا
فلمـا لم نـدع نـدباً ورمحـا ... بركنـا للكلاكـل فارتمينـا
فإنـك لـو رأيـت بـني أبينـا ... وشـدتهم وعكـرتهم علينـا
لعمـر الباكيـات علـى نعـيم ... لقـد عـزت رزيتـه علينـا
فـلا تبعـد نعـيم فكـل حـي ... سيلقى من صروف الدهر حينا

على أن أجود شعره الذي وصل إلينا هو ما كان في الغزل فمن ذلك قوله :

لله قلـب سمـا بحـبكم ... لم يـأْلُ في مرتقـاه مرتفعـا
لم يصـنع الحـب غـير موضـعه ... ولا سـعى في السـلو حـين سـعى
أحببـت قلـبي لمـا أحـبكم ... وصـار أمـري لأمـره تبعـا

قال ابن المعتز: "وهذا معنى بديع قلما يرزق الشاعر مثله". وذكر له من هذه القصيدة نفسها أبياتًا أخر منها:

شـيَّعت قلـبي إلى مشـيئته ... متَّـبعًا في الهـوى ومتبعـا
ورب قلـب يقـول صـاحبه ... تعسًـا لقلـبي فبـئس مـا صـنعا
يـا مـن تعريـت مـن تعطفـه ... ومـن كسـاه تعطفـي خلعـا
مـا هبَّـت الـريح مـن بلادكـم ... إلا تقطعـت إثـركم قطعـا
ولا اسـتقلت مـن نحـو بلـدتنا ... إلا تمنيـت أن نكـون معـا!!

وقد كانت وفاة البطين في الاسكندرية بمصر ، فقد قال جعفر بن أحمد بن حمدان المصري: قدم علينا البطينُ مصرَ وخرج إلى الإسكندرية، فانخسفت به بئرُ مخرجٍ، فتلفَ فيها.

٧. المثقال:

لقب بهذا اللقب الغريب شاعر مجيد، وضعه ابن رشيق في "الأنموذج" بأنه شاعر مطبوع ، قليل التكلف ، سهل القافية ، خبيث اللسان في الهجاء. اسمه عبد الوهاب بن محمد الأزدي، وردت ترجمته في "مسالك الأبصار" و"الوافي بالوفيات" و"معاهد التنصيص" وغيرها من كتب الطبقات. ويبدو من سيرته أنه كان يتردد بين الأندلس والإسكندرية.

ومن شعره في الغزل :

خيالك زائري من غير وعد ... وأكثر منك بي برًا وحبًّا

فلما أن رآك أطلت بُعدي ... ولم تمنح محبك، منك قربا

سرى وَهْنا فقبَّلني وآلى ... يمين الله، لا عذبت صبًّا

فأحيا مهجةً تلفت غرامًا ... وقلبًا لم يفق دنفا وكربا

فكان الطيف أرأف منك نفسًا ... وألين منك أعطافًا وقلبا

وهي أبيات كما ترى في غاية الرقة واللطف والابتكار، ورهافة الحس.

ومن شعره كذلك قوله وقد أجاد فيه حسن التشبيه:

هم بالوجوه: من البدور ... وبالقدود: من الغصونْ!!

ودروعهم: صِبْغُ الحيا ... وسيوفهم: لحظ العيونْ!!

قال عنه ابن رشيق في الأنموذج: شاعر مطبوع، قليل التكلف، سهل القافية خبيث اللسان في الهجاء. ماجن لا يمدح أحداً. كان يألف غلاماً نصرانياً خماراً واشتهر وأقام ببابه في الحانة ثلاث سنين ، ويدخل معه الكنيسة في الآحاد والأعياد طول هذه المدة، حتى حذق كثيراً من الإنجيل وشرائع أهله ، وهجره مرة فاستعان وتحيل فلم يجد إليه سبيلاً ، وزعم أن عليه قسماً شديداً أن لا يكلمه إلى شهر فدعا بالفاصد وفصد إحدى يديه، ثم دعا بفاصد آخر وفصد اليد الأخرى ، ودخل داره وأغلق بابه، وفجر الفصادين ، فما شعر أهله إلا بالدم يدفع من سدة الباب ، وبلغ الغلام أنه يدعي أنه قتله، فصالحه خوفاً على نفسه! ومن شعره:

خيالك زُرْني من غير وعد ... وأكثر منك بي براً وحبا
فلما أن رآك أطلت بعدي ... ولم تمنح محبك منك قربا
سرى وهناً فقبلتي وآلى ... يمين الله لا عذبت صبا
فأحيى مهجة تلفت غراماً ... وقلباً لم يفق دنفاً وكربا
فكان الطيف أرأف منك نفساً ... وألين منك أعطافاً وقلبا

ومنه:

هم بالوجوه من البدور ... وبالقدود من الغصون
وبروعهم صيغ الحيا ... وسيوفهم لحظ العيون

ومنه :

لما تناهى وكمل ... وتم لي فيه الأمل
أعرض واستبدل بي ... كذلك الدنيا دول

ومنه :

قد زارني طيف من أهوى يعللني عند الصباح وخيط الفجر قد طلعا
فطرت شوقاً لعلمي أن قبلته في النوم تحدث لي في وصله طمعا

ووقد مات محبوبه النصراني بالإسكندرية فقال يرثيه :

أخـي بـوداد لا أخـي بديانـة ورب أخ في الـود مثـل نسـيب
وقـالوا أتبكـي اليـوم مـن لسـت غـداً إن هـذا فعـل غـير لبيـب
فقلـت لهـم هـذا أوان تلـهفي وشـدة إعـوالي وفـرط كربـي
ومن أين لا أبكي حبيباً فقدته إذا خاب منه في المعاد نصيبي
فيا ناصحي مهلاً فلست بمرشد ويـا لائمي أقصر فغير مصيب
وسلمان أودى حيث لا أنا حاضر أعلله يومـاً بوصـف طبيـب
وأجعل كفي تحت جيب مكرم علـي وخـد بـالنحول خضـيب

٨- المنتوف :

كنيته أبو الجراح ، واسمه عبد الله بن عياش الهمداني الكوفي، روى الحديث عن الشعبي وغيره ، وروى عنه الهيثم بن عدي لأنه كان أحد رواة الأنساب ، والأخبار ولذلك تجد له ترجمةً في كتب المحدثين مثل "تاريخ الإسلام"، و"العبر"، و"ميزان الاعتدال"، و"لسان الميزان".

وقد وصفوه بأنه كان أبرص، وكان ينتف لحيته، وهذا هو سبب اللقب الذي عرف به عند من أرخوا له.

ورووا عنه أنه كان كيِّسًا، مطبوعًا، ولكنه كان صاحب نوادر تنم عن خفة ظل وسرعة بديهة؛ فمن ذلك ما روي أن رسالةً جاءت إليه من معن بن زائدة أحد

وجهاء اليمن المعروفين يقول فيها للمنتوف: قد بعثت إليك بخمسمائة دينار، ومن الثياب اليمنية بخمسين ثوبًا أشتري بها دينك!!"، فكتب إليه: "قد بعتك ديني كله إلا التوحيد لعلمي بقلة رغبتك فيه"!!!

وكان مقربًا من الخليفة المنصور، ويتخذ من هذا القرب سندًا لكي سخر ممن يشاء، حتى إنه كان يسخر من وزيره الربيع، ويطعن في نسبه طعنًا قبيحًا.

ويقول له : "فيك شبه من المسيح"!! يخدعه بذلك، فكان يفرح بذلك ويكرمه فلما بلغ ذلك المنصور ضحك كثيرًا .

وقال: إن المنتوف يعبث بالربيع ، ويقصد بذلك أنه يشبه المسيح في أنه لا أب له !!

ومن شعر المنتوف في صديق له حالت الدنيا بينهما ، فقال:

صحبت أبا سفيان ستين ... خليليْ صفاءٍ ودنا غير كاذب

فأمسيتُ لما حالت الأرض ... - على قربه مني - كمن لم أصاحب

حافي رأسه :

حافي رأسه هو النحوي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر العلامة جمال الدين التلمساني الزناتي الكملاني المازوني، ولقبه محيي الدين وكان من أئمة العربية في ثغر الاسكندرية في عصره وكان يحفظ كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي ويقرئ بداره وقد تتلمذ عليه كثير من النحاة ولقب بحافي رأسه لحفرة كانت في دماغه وقيل كان في رأسه شيء يشبه الحفرة ، وقيل لأنه كان في أول أمره

مكشوف الرأس وقيل رآه رئيس في الثغر فأعطاه ثياباً جدداً لبدنه فقال: هذا لبدني ورأسي حافي، فأمر له بعمامة فلزمه ذلك اللقب، ومن شعره :

ومعتقد أن الرياسة في الكبر ... فأصبح ممقوتاً بها وهـو لا يـدري

يجر ذيول الكبر طالب رفعة ... ألا فاعجبوا من طالب الرفع بالجر

و له شعر يصف فيه أهل الاسكندرية بالبخل فيقول :

يا منكراً من بخل أهل الثغر ما ... عرف الورى أنكرت مالا ينكر

أقصـر فقـد صحت نتانة أهله ... ومن الثغور كما علمت الأبخر

وقد كان حافي راسه أحد النحاة الثلاثة المحمدين في عصر واحد – أي : هو في الاسكندرية وابن النحاس في مصر وابن مالك في دمشق ومن شعره الغزلي :

ومعلمي الصبر الجميل بهجره ... فثنى فؤاداً عنه لم يك ينثني

لا بـد مـن أجـر لكل معلم ... وإلى السلو ثواب ما علمتني

وكتب إلى الأمير نور الدين على بن مسعود الصوابى:

شكوت إليك نور الدين حالي ... وحسبي أن أرى وجه الصواب

وكتبـي بعـتها ورهنت حتى ... بقيت من المجوس بلا كـتاب

حتى النحاة يضحكون !!

النحاة - دون غيرهم من أهل العلم - مشهورون بالصفات المنفِّرة : كالكآبة والتقعر، والانغماس في سفاسف الأمور، وما أكثر ما يذكر الناس قول القائل فيهم:

إذا اجتمعوا على أَلِفٍ وياء ... وواوٍ، ثار بينهمُ الجدالْ

وفي العصور الإسلامية الأولى كان الشعراء والفقهاء يجدون لدى الخلفاء ترحاباً وعطفاً وعطايا متجددة، فيما كان النحاة يعانون من الإهمال والتنكر لقيمة ما يحملون من علم.

ولم يقف سوء حظ النحاة عند هذا الحد، من جحود الحكام، بل امتد حتى شمل المؤرخين الذين كانوا يوردون في تأريخهم وتراجمهم للنحاة طرائف ونوادر تحط من مكانتهم وتزري بسلوكياتهم، وتتندر بأحوالهم، وتجمع بينهم وبين معلمي الصبية الذين عرف عنهم الحمق وخطل الرأي، وسوء التدبير.

سوء حظ دائم :

ومما رووه عن نكد الدنيا مع النحاة، ما ورد في بغية الوعاة للسيوطي (١ / ٢٠) عن ابن السراج النحوي أنه كان يسير مع صديقه النجم القحفازي في طريق ملوث بالزيت وأواني الزيت الفارغة فعثر ابن السراج في مشيته فقال لصاحبه : تعسنا في "ظرف المكان".

فقال له صاحبه : لأنك تمشي بلا "تمييز".

فقال ابن السراج : إن هذا "حال" نحس.!!

ومما يروى عن سوء الحظ الذي لازم النحاة ، أن أبا عبيدة معمر بن المثنى - وهو أحد أعمدة اللغة الأوائل - جلس يوماً في مجلس يعلم فيه الناس ، فابتلاه الله تعالى بقوم جهلاء في مجلسه ذاك .

فقام إليه رجل فسأله : رحمك الله يا أبا عبيدة .ما (العنجيد)؟

فقال أبو عبيدة مستغربا : رحمك الله ! ما أعرف هذا.

فقال له الرجل : سبحان الله !! فأين ذهب عنك قول الأعشى:

يـوم تـُبدى لنـا قُتـَيْلَةُ عـن جيـدٍ مليـحٍ يَزِينـُه الأطـواقُ

فقال أبو عبيدة : رحمك الله . " عن" : حرف جر ، و" الجيد" : العنق. ثم قام رجل آخر وقال :يا أبا عبيدة ، رحمك الله . ما "الأودع"؟

فقال أبو عبيدة :لا أعرفه.

فقال الرجل : سبحان الله . فأين أنت من قول العرب :"زاحِمْ بعودٍ أَو : ْدعْ

فقال أبو عبيدة : ويحك !! هاتان كلمتان . "أو" :حرف تمييز ، و"دع" : فعل أمر بمعنى اترك .

ثم استغفر أبو عبيدة ربه واستأنف درسه ، فقام رجل آخر وقال : أخبرني يا أبا عبيدة عن رجل من المهاجرين اسمه (كوفا)

فقال أبو عبيدة : لا أعلم من المهاجرين من سمي بهذا الاسم .

فقال الرجل : فأين أنت من قول الله ﷻ :

﴿ ....وَٱلۡهَدۡىَ مَعۡكُوفًا ... ﴾ (١)

١- سورة الفتح : من الآية ٢٥ .

قال الرواة : فأخذ أبو عبيدة نعليه . وقام مغضباً يجري في مسجد البصرة حيث كان في مجلسه - وهو يصيح بأعلى صوته من أين حُشِرت البهائم عليَّ في هذا اليوم ؟!

يدافعون عن أنفسهم :

غير أن الله تعالى قيض لهؤلاء النحاة من يدافعون عنهم ما يُروَّج ضدهم من إشاعات وهمز ولمز، فمن هؤلاء المحامين الكبار عن شرف علوم العربية : عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي (ت ١١٧هـ) وهو رأس من رؤوس اللغة أحسن إليها تأليفاً وتدريساً ودفاعاً .

فقد روى القفطى في إنباه الرواة (٢ / ١٠٤) في ترجمته موقفاً طريفاً حدث بينه وبين مفسِّر الأحلام التابعي الجليل ابن سيرين .

فقال : كان ابن سيرين يُبغِض النحويين ، وكان يقول : لقد بَغَّض إلينا هؤلاء المسجد ، وكانت حلقته إلى جانب حَلقة ابن أبي إسحاق.

وبلغ ابن أبي إسحاق أنه يَعيب عليه تفسير الشعر ويقول : ما علمه بإرادة الشاعر ! فقال ابن أبي إسحاق : إن الفتوى في الشعر لا تُحِلّ حراماً ، ولا تُحرِّم حلالاً ؛ وإنما نُفتي فيما اُستتر من معاني الشعر ، وأشْكَل من غريبه وإعرابه بفتوى سمعناها من غيرنا ، أو اجتهدنا فيها آراءنا ؛ فإن زللنا أو عثرنا فليس الزلل في ذلك كالزلل في عبارة الرؤيا ، ولا العثرة فيها كالعثرة في الخروج عما أجمعت عليه الأئمة من سنة الوضوء ، وكرهته الجماعة من الاعتداء في الطهور . فبلغ ذلك ابن سيرين

فأقصر عما كان عليه من الإفراط في الوضوء . وكان إذا جاءه الرجل يسأله عن الرؤيا قال:هات حتى أظن لك .

وكان ابن أبي إسحاق يعتمد الإعراب في عبارته حرفاً واحداً، فمرت به سِنورة [قطة]

فقال : اخْسَئْ ، فقال له صاحبه معاتباً ساخراً ألا قلتَ اخسئي !.

مواقف فكهة:

ومن النحاة قوم أوتوا نصيباً من خفة الظل جاءهم طبعاً لا تكلفاً فهم في أيامهم ولياليهم. ومجالسهم وسمرهم ، ظرفاء حقيقيون لا يصطنعون المزاح وإنما تغلب عليهم طبائعهم المرحة المتفائلة . فمن هؤلاء سعد بن شداد الكوفي تلميذ أبي الأسود الدؤلي وكان له مكان معروف يعلِّم فيه النحو ، ويحضره جمع من طلاب العلم .

قالوا : حضر سعد هذا مجلساً لأحد الحكام الغلاظ الشداد وهو زياد بن أبيه فجاء قوم من بني راسب وقوم من بني طُفاوة يختصمون في مولود ، كل قوم ينسبونه لهم .

فقال سعد : أيها الأمير.. يُلقى هذا المولود في الماء ، فإن رسب فهو من بني راسب وإن طفا فهو من بني طفاوة .

فقام زياد ضاحكاً ممسكاً نعله وكأنه يهدده به وقال له : ألم أنهك عن هذا الهزل في مجلسي ؟ قال السيوطي في البغية (١/ ٥٧٩) عن سعد هذا :

" وكان عُبيد الله بن زياد يستظرفه ويقرِّبُه ، فأبطأ عن صلته شهراً ، فقال عبيد الله يوماً : ما أحوجني إلى وُصفاء لهم حلاوة وقدود ذوي رشاقة ، يقومون على رأسي ، فقال سعد : حاجتك عندي أيها الأمير ؛ وعمد إلى أصلح مَنْ قدر عليه من الغِلمان الذين عنده في المكتب ، فألبسهم ثياب الوُصفاء ، وأتى بهم عبيد الله فاشتراهم وغالى بهم ، ومضى سعد واختفى عند بعض أصحابه ، فلما جاء الليل بكى الصبيان ، فقال لهم عبيد الله : ما تريدون ؟

قالوا : نريد بيتنا ، فقال : وأين بيتكم ؟ قالوا : في موضع كذا وكذا ، وأنا ابن فلان وهذا ابن فلان . ففطن عبيد الله أنها حيلة وسخرية ، فوضع عليه الرصد [أي خصص من يراقبه ويقبض عليه]، فلما جئ به إليه قال له : ما حملك على ما فعلت؟

قال : أبطأت علي صلتُك ! فضحك منه ، وترك له المال ."

ومن هذه المواقف الفكهة ما رويِ عن أبي حاتم السجستاني أنه دخل بغداد فسئل عن قول الله تعالى :

﴿ ...قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ.... ﴾[(١)]

(قُوا أَنْفُسكُم) : ما يقال منه للواحد ؟

فقال : قٍ .

فقال السائل : فما يقال منه للاثنين ؟

---

١ - سورة التحريم : من الآية ٦ .

فقال أبو حاتم : قيا .

قال السائل : فالجمع ؟

قال : قُوا ، قال : فاجمع لي الثلاثة .

قال : قٍ ، قيا ، قَوا .

قال أبو حاتم : وكان في ناحية المسجد رجل جالس معه قماش .

فقال لواحد بجانبه : احتفظ بثيابي حتى أجئ ، ومضى إلى صاحب الشرطة

وقال : إني ظفرت اليوم بقوم زنادقة يقرءون القرآن على أنغام صياح الدِّيك فما شعرنا حتى هجم علينا الأعوان والشرطة ، فأخذونا وأحضرونا مجلس صاحب الشرطة ، فسألنا فتقدمت إليه وأعلمته بالخبر ، وقد اجتمع جمع من خَلق الله ينظرون ما يكون ، فعنفنى وعذلني [لامني] .

وقال : مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا ! وعمد إلى أصحابي فضربهم عَشَرة عشرة .

وقال : لا تعودوا إلى مثل هذا ، فعاد أبو حاتم إلى البصرة سريعاً ، ولم يُقِمْ ببغداد ، ولم يأخذ عنه أهلها . !!

ومن هذه المواقف أيضاً ما روي عن عبد الله بن بري الذي لم يكن في الديار المصرية أعلم منه بالنحو وكان يقوم بتدريسه في جامع عمرو بن العاص في القرن السادس الهجري ، غير أنه كان بخيلاً اشترى يوماً عنباً فجعله في كم ثوبه ليخفيه عن الناس ، وفيما هو في طريقه استوقفه صاحب له فوقفا معاً يتحادثان وهو

يعبث في العنب من غير قصد حتى نقط العنب على قدمه ، فسأل ذلك النحوي البخيل صاحبه : أتحس المطر ؟

قال :لا .

قال فما هذا الذي ينقط على رجلي ؟

قال: هذا من العنب ! ! فخجل ومضى .

ويتصل بهذه الغفلة أيضاً ما روي عن النحوي المعروف باسم (شُمَيْم الحليِ) واسمه علي بن الحسن .

روي عنه ياقوت ما يدل على خفة العقل .

فقال : أنشدني لنفسه أبياتاً في الخمر فاستحسنتها فغضب .

وقال : ويلك . ما عندك غير الاستحسان !!

قال ياقوت : فقلت له : و ما أصنع يا مولانا ؟

قال : هكذا : وقام فجعل يرقص ويصفِّق إلى أن تعب .

ثم جلس وقال : بُليت ببهائم لا يعرفون الدر من البعر.!!

وروى عنه القفطي نادرة أشنع في الإنباه (٢/ ٢٤٤) عن أبي البركات سعيد بن أبي جعفر الهاشمي الحلبى .

قال : جاء شميم إلى حلب ، فدخلنا عليه مستفيدين (أي لنتعلم عليه) .

فرأيته يوماً وقد أنشدني لنفسه شعراً أكثرنا من الاستحسان له : فقام إلى أحد أركان المنزل ، ونام على ظهره ورفع رجليه إلى الحائط ، ولم يزل يرتفع حتى

استوى واقفاً على رأسه ثم جاءنا وقال: هكذا يُشكر الله على النعمة وهو أن يقف الإنسان على رأسه لا على رجليه .. !!

ومن حماقات النحاة ما روي عن الربعي النحوي (علي بن عيسى تلميذ السيرافي) من أنه كان مبتلى بقتل الكلاب ، فسأل يوماً أولاد الأكابر الذين يحضرون مجلسه أن يمضوا معه إلي منطقة معينة ، فظنوا أن له فيها حاجة فركبوا خيولاً و خرجوا و خرج ماشياً و معه كساء و عصا إلي كلب هناك ، فعدا نحوه ، و الكلب يثب عليه تارة ، ويهرب منه أخرى حتى أعياه ، فعاونه تلاميذه حتى أمسكوا الكلب وجاءوه به ، فعض النحوي الكلب بأسنانه عضاً شديداً . و قال : هذا عضني منذ أيام وأردت أن أخالف .

وقد ورد في هذا المعنى قول شاعر قديم :

شَاتمنِي كلْبُ بني مِسْمَعٍ   فَصُنْتُ عِنْهُ النَّفْسَ والعِرْضَا
ولم أجبه ، لاحتقاري له   مَنْ ذا يعضُّ الكلْبَ إنْ عَضَّا !

و من ظرفاء النحاة عثمان بن عيسى البُلَطي (بضم الباء وفتح اللام) ترجم له ياقوت و نقل السيوطي ما رواه عنه ياقوت فقال : كان عالماً ، إماماً ، نحوياً لغوياً إخبارياً ، مؤرخاً شاعراً عروضياً ، و كان يخلط المذهبين ، و كان خليعاً ماجناً شراباً للخمر ، منهمكاً في اللذات ، أقام بدمشق برهة ، ثم انتقل إلي مصر لما فتحت فحظي بها ؛ و رتب له الصلاح بن أيوب علي جامع راتباً يقرئ به النحو و القراءات .

وكان آخذ النحو عن أبي نزار وسعيد بن الدهان ، وكان يتطيلس ولا يدير الطيلسان علي عنقه بل يرسله، وكان يلبس في الصيف الثياب الكثيرة ، ويختفي في الشتاء ، فكان يقال له : أنت من حشرات الأرض . ويدخل الحمام وعلي رأسه مبطَّنة ، لا يرفعها إلا إذا سكب الماء على رأسه ثم يلبسها حتى يملأ السطل .

وحضر عنده مغنٍّ فغنّاه صوتاً أطربه ، فبكى هو وبكى المغني .

فقال له : أما أنا فبكيت من الطرب ، فما الذي أبكاك ؟

فقال المغني : تذكرت والدي ، فإنه كان إذا سمع هذا الصوت بكى .

فقال له البطلي : فأنت والله إذا ابن أخي ، وخرج، فأشهد على نفسه جماعة من عدول مصر بأنه ابن أخيه ، ولا وارث له سواه، ولم يزل يعرف بابن أخي البلطي

ومن المواقف الظريفة للنحاة تلك المواقف الشهيرة لإمام أهل الكوفة الكسائي رحمه الله فقد كان يحسن الدفاع عن أهل اللغة فمن ذلك ما روي عنه من حوار بينه وبين أبي يوسف صاحب أبي حنيفة رحمه الله فقد قالوا إن أبا يوسف كان يقع في الكسائي ويقول : أي شيء يحسنه الكسائي ؟ إنما يحسن شيئاً من كلام العرب ، وكأنه يستهين بعلمه ويرى الفقه خيراً منه ، فبلغ الكسائي ذلك . فالتقيا عند الرشيد - وكان الرشيد يعظم الكسائي لتأديبه إياه - فقال لأبي يوسف يا يعقوب : بأيش تقول في رجل قال لامرأته : أنت طالق طالق طالق ؟

قال : واحدة .

قال : فإن قال لها : أنت طالق أو طالق أو طالق .

قال : واحدة .

قال : فإن قال لها : أنت طالق ثم طالق ثم طالق .

قال : واحدة .

قال : فإن قال لها : أنت طالق و طالق و طالق .

قال واحدة . قال (الكسائي) : يا أمير المؤمنين ، أخطأ يعقوب في اثنتين و أصاب في اثنتين .

أما قوله : طالق طالق طالق فواحدة ؛ لأن الثانيتين تأكيد ؛ كما تقول : أنت قائم قائم قائم ، و أنت كريم كريم كريم .

و أما قوله أنت طالق أو طالق أو طالق فهذا شك ، وقعت في الأولى التي تتيقن

و أما قوله : طالق ثم طالق ثم طالق ، فثلاث ؛ لأنها نسق ، وكذلك طالق وطالق و طالق .

وكتب دماز [أبو غسان صاحب أبي عبيدة] إلى المازني معبرا عن ضيقه بباب الإضمار وهو باب من النحو ثقيل ، عسر الهضم ، وكان دِماز قد قرأ من النحو إلى باب الواو والفاء ومن قول الخليل وأصحابه أن ما بعدها ينتصب بإضمار أن فشق عليه فهم هذه الجزئية . فقال دماز شاكيا باب الفاء وباب الواو لأنها بابا الإضمار:

وفكرت في النحو حتى مللت ... وأتعبت نفسي له والبدن

وأتعبت بكراً وأصحابه ... بطول المسائل في كل فن

فكنت بظاهره عالماً ... وكنت بباطنه ذا فطن

خلا أن باباً عليه العفاء ... للفاء يا ليته لم يكن

وللــــواو بـــــابٌ إلى جنبـــــه — مــن المقــت أحسـبه قــد لعــن
إذا قلـــت هـــاتوا لمـــاذا يقـــا — ل : لســـت بآتيـــك أو تـــأتين
أجيبـــوا لمـــا قيــل هــذا كــذا — على النصب ؟ قالوا : لإضمار "أن"!!
فقـد كـدت يـا بكـر مـن طـول مـا — أفكـــر في بابـــه أن أجـــن !!!

وروى محمد بن يزيد الشهير بالمبرد واقعة طريفة عن نفسه فقال : قال لي المازني: يا أبا العباس بلغني أنك تتصرف من مجلسنا فتصير إلى المخيس [مستشفى الأمراض العقلية] وإلى مواضع المجانين والمعالجين فما ذاك؟

قال : فقلت :

إن لهم أعزك الله طرائف من الكلام وعجائب من الأقسام.

فقال : خبرني بأعجب ما رأيته من المجانين.

قال فقلت : دخلت يوماً إلى مستقرهم فرأيت مراتبهم على مقدار بليتهم وإذا قوم قيام قد شدت أيديهم إلى الحيطان بالسلاسل ونقبت من البيوت التي هم بها إلى غيرها مما يجاورها لأن علاج أمثالهم أن يقوموا الليل والنهار لا يقعدون ولا يضطجعون ومنهم من

يحلب على رأسه وتدهن أرداؤه ومنهم من ينهل ويعل بالدواء حسب ما يحتاجون ، فدخلت يوماً مع ابن أبي خميصة وكان المتقلد للنفقة عليهم ولتفقد أحوالهم فنظروا وأنا معه فأمسكوا عما كانوا عليه لولاء موضعه فمررت على شيخ منهم تلوح صلعته وتبرق

للدهن جبهته وهو جالس على حصير نظيف ووجهه إلى القبلة كأنه يريد الصلاة.

فجاورته إلى غيره فناداني : سبحان الله أين السلام من المجنون ترى أنا أم أنت . فاستحيت منه وقلت : السلام عليكم.

فقال: لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الرد عليك على أنا نصرف سوء أدبك إلى أحسن جهاته من العذر لأنه كان .

يقال : إن لله إخاء على القوم دهشة اجلس أعزك الله عندنا. وأومى إلى موضع من حصيره ينفضه كأنه يوسع لي.

فعزمت على الدنو منه فناداني ابن أبي خميصة: إياك إياك! فأحجمت عن ذلك ووقفت ناحية أستحلب مخاطبته وأرصد الفائدة منه. ثم قال لي وقد رأى معي محبرة : يا هذا أرى معك آلة رجلين أرجو أن لا تكون أحدهما أتجالس أصحاب الحديث الأغثاث أم الأدباء من أصحاب النحو والشعر .

قال : أتعرف أبا عثمان المازني .

قلت: نعم معرفة ثاقبة .

قال : أفتعرف الذي يقول فيه :

وفتى من مازنٍ ساد أهل البصرة أمه معروفة وأبوه نكرة

قلت : لا أعرفه .

قال : أفتعرف غلاماً له قد نبغ في هذا العصر معه ذهن وله حفظ وقد برز في النحو وجلس في مجلس صاحبه وشاركه فيه يعرف بالمبرد .

قلت : أنا والله عين الخبير به.

قال : فهل أنشدك شيئاً من عبثات أشعاره؟

قلت : لا أحسبه يحسن قول الشعر.

قال : سبحان الله أليس هو الذي يقول:

حبذا مـاء العناقيـد بريـق الغانيـات   بهما ينبت لحمي ودمي أي نبـات

أيها الطالب أشهى من لذيذ الشهوات   كل بماء المزن تفاح خدود الناعمات

قلت : قد سمعته ينشد هذا في مجلس الأنس .

قال : يا سبحان الله أويستحيا أن ينشد مثل هذا حول الكعبة ما تسمع الناس يقولون في نسبه .

قلت : يقولون هو من الأزد أزد شنوءة ثم من ثمالة.

قال : قاتله الله ما أبعد غوره أتعرف قوله:

سـألنا عـن ثمالـة كـل حـيٍ   فقـال القـائلون ومـن ثمالـة

فقلـت محمـد بـن يزيـد منهم   فقـالوا زدتنـا بهـم جهالـة

فقـال لـي المـبرد خـل قـومي   فقـومي معشـر فـيهم نذالـة

قلت : أعرف هذه الأبيات لعبد الصمد بن المعذل يقوله لها فيه .

قال : كذب من ادعاها غيره هذا كلام رجل لا نسب له يريد أن يثبت بهذا الشعر له نسباً. قلت أنتم أعلم .

قال : يا هذا قد غلبت بخفة روحك على قلبي وتمكنت بفصاحتك من استحساني وقد أخرت ما كان يجب أن أقدمه. الكنية أصلحك الله؟

قلت : أبو العباس .

قال : فالاسم .

قلت : محمد .

قال : فالأب .

قلت : يزيد .

قال : قبحك اللّٰه أحوجتني إلى الاعتذار إليك مما قدمت ذكره. ثم وثب باسطاً يده لمصافحتي.

فرأيت القيد في رجله قد شد إلى خشبة في الأرض فأمنت عند ذلك غائلته .

فقال لي : يا أبا العباس صن نفسك عن الدخول إلى هذه المواضع فليس يتهيأ لك في كل وقت أن تصادف مثلي في مثل هذه الحال الجميلة أنت المبرد .

وجعل يصفق وقد انقلبت عينه وتغيرت حليته. فبادرت مسرعاً خوفاً أن تبدرني منه بادرة وقبلت قوله فلم أعاود الدخول إلى مخيس ولا غيره.

والنحوي قد يقبل أن يسبه أحد بشرط ألا يلحن ولا يخطئ فقد قالوا إن الشاعر الهجاء الماجن عبد الصمد بن المعذل كان قد وجد [غضب] من شيء أنكره المازني النحوي وكلام تكلم به فيه فقال يهجوه وأفحش :

بنت ثمانين بفيها لثغه — شوهاء ورهاء كطين الردغه

ممشوطة لمتها المثمغه — ملوية أصباغها المصمغه

مخضوبة في قمص مصبغه — مثلبة للصاحب منزغه

فيها يعاف الخفرات ميلغه — ملسبةٌ بالناقرات ملدغه

أعارهـا الغضـون منـه الوزغـه — والظربـان كشـحه وأزنغـه
والديك أحذى الجيد منها النغنغه — ألقت حليساً لي وألقت مردغه
وهامسـتني بحـديث فغفغـه — وحلـف منهـا وإفـك مغمغـه
إنـك إن ذقـت حمـدت المضغه — فقلـت مـا هاجـك قالـت دغدغـه
فقلـت مـن أنـت فقالـت لـي دغـه — وابنـى أبـو عثمـان ذو علـم اللغـه
فـاطوِ حـديثي دونـه أن يبلغـه — هممـت أعلـو رأسـها فأدمغـه

فبلغ أبا عثمان فلم يبال بتلك الصفات الوضيعة التي ألصقها بأمه وقال قولوا لهذا الجاهل بم نصبت "فأدمغه" لو لزمت مجالسة أهل العلم كان أعود عليك.!!!

ويروي لنا السيوطي في البغية نادرة عن أبي مكنون النحوي الذي وقف يدعو ربه فسمعه أعرابي كان بجواره وهو يدعو قائلا : اللهم ربنا وإلهنا ومولانا ، صل على نبينا ، اللهم ومن أرادنا بسوء فأحط ذلك السوء به كإحاطة القلائد على ترائب الولائد ، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على أصحاب الفيل ، اللهم اسقنا غيثا مريعا مجللا ، وحَياً سحاً سفوحا طبقا غدقا ، ودقا مثعنجرا .

ففزع الأعرابي وقام صارخا : يا خليفة نوح ، الطوفان ورب الكعبة . دعني آوي بعيالي إلى جبل يعصمني من الماء !!

وروى القفطي عن أبي علقمة النحوي أنه مر يوما على عبدين : حبشي وصقلي ، فإذا الحبشي قد ضرب بالصقلي الأرض ، فأدخل ركبتيه في بطنه وأصابعه في عينيه وعض أذنيه وضربه بعصا فشجه وأسال دمه ، فقال الصقلبى لأبي علقمة

الذي مر بهما فشهد الضرب اشهد لي على خصمي بما رأيت ، فمضوا إلى الأمير فقال له الأمير : بم تشهد ؟

فقال : أصلح الله الأمير. بينا أنا أسير على كودني ، إذ مررت بهذين العبدين ، فرأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع ، فحطأه على فدفد ، ثم ضغطه برضفتيه في أحشائه ، حتى ظننت أنه تدعج جوفه ، وجعل يلج بشناتره حجمتيه يكاد يفقؤهما ،وقبض على صنارتيه بمبرمه وكاد يحذهما ، ثم علاه بمنسأته فعفجه بها ، وهذا أثر الجريان عليه بيِنا.

فقال الأمير : والله ما فهمت مما قلت شيئا .

فقال أبو علقمة : قد فهمناك إن فهمت ، وأعلمناك إن علمت، وأديت إليك ما علمت ، وما أقدر أن أتكلم بالفارسية .

فجهد الأمير في كشف الكلام حتى ضاق صدره ، ثم كشف الأمير رأسه وقال للصقلبي المجني عليه : شجني خمساً وأعفني من شهادة هذا .!!

مواصفات جزمة نحوي :

ويحكي لنا الشاعر المصري المجهول شرف بن أسد (ت ٧٣٨هـ) حكاية طريفة عن نحوي مر بإسكافي يبيع النعال فوقف ببابه يريد أن يشتري نعلاً فقال النحوي للإسكافي :

"أبيتَ اللعن ، واللعنُ يأباك ، رحم الله أمَّك وأباك ، وهذه تحية العرب في الجاهلية قبل الإسلام ، ولكن عليك السِّلْم والسَّلَمُ والسَّلام ، ومثلك من يُعز ويُحترمْ ويُكْرم ويُحْتَشَم ، إنني قرأتُ القرآن و" التيسير" و" العنوان " و" المقامات

الحريرية" و " والدرة الألفية " و " كشاف الزمخشري " و " تاريخ الطبري " ، وشرحت اللغة مع العربية على سيبويه ، ونفطويه، والحسن بن خالويه ، والقاسم بن كُمَيْل والنضر بن شميل ، وقد دعتني الضرورة إليك ، وتمثلت بين يديك ، لعلك تتحفني من بعض حكمتك ، وحسن صنعتك ، بنعل يقيني الحر ، ويدفع عني الشر ، وأعرب لك عن اسمه حقيقاً ، لأتخذك بذلك رفيقاً : ففيه لغات مختلفة ، على لسان الجمهور مؤتلفة : ففي الناس من كناه بـ " المَدَاس " ، وفي عامة الأمم من لقبه بـ" القَدَم"، وأهل شهرنورة سموه بـ " السامورة ".

وإني أخاطبك بلغات هؤلاء القوم ، ولا إثم عليَّ في ذلك ولا لوم، والثالثة بي أولى ، وأسألك أيها المولى ، أن تتحفني بسامورة أنعم من الموزة ، أقوى من الصوان وأطول عمراً من الزمان ، خالية البواشي ، مطبقة الحواشي ، لا يتغير علي وشيها ،ولا يروعني مشيها، لا تنقلب إن وَطِئْتُ بها جُروفاً ، و لا تنفلتُ إن طحتُ بها مكاناً مخسوفاً ، ولا تلتوي من أجلي ، ولا يؤلمها ثقلي ، ولا تتمزق من رجلي ، ولا تتعوج ولا تلقوج ، ولا تنبج ، ولا تنفلج ، ولا تقب تحت الرجل ، ولا تلصق بخبز الفجل ظاهرها كالزعفران ، وباطنها كشقائق النعمان ، أخف من ريش الطير ، شديدة البأس على السير ، طويلة الكعاب ، عالية الأجناب ، لا يلحق بها التراب ، ولا يغرقها ماء السحاب ، تصر صرير الباب ، وتلمع كالسراب ، وأديمها من غير جراب جلدها من خالص جلود الماعز ، ما لبسها أحد إلا افتخر بها وعز ، مخروزة كخرز الخرنفوش ، وهي أخف من المنقوش ، مسمرة بالحديد ممنطقة ، ثابتة في الأرض المزلقة ، نعلها من جلد الأفيلة لا الحمير الفطير ، وتكون بالنزر الحقير" .

فلما أمسك النحوي وانتهى من كلامه ، وثب الإسكافي على أقدامه ، وتمشى وتبختر ، وأطرق ساعة وتفكر ، وتشدد وتشمر ، وتحرج وتنمر ، ودخل حانوته وخرج وقد داخله الحنق والحرج.

فقال له النحوي : جئت بما طلبت .

فقال : لا بل بجواب ما قلت .

فقال : قل وأوجز ، وسجع ورجز .

فقال : أخبرك أيها النحوي ، أن الشرسا يحزوي ، شطبطبات المتقرل والمتقبعقب لما قرب من قرى قوق القرنقنقق ، طرق رزقنا ، شراسيف قصر القشتبع من جانب الشرشنكل والديوك تصهلل ، كنهيق الرقايق الصولجانات ، والحرفرف الفرتاح ، يبيض القرقنطق والزعر برجوا حلبنبوا يا حيزا ، من الطير ، بحج بجمند كبشمردل ، خاط الركبنبو ، شاع الجبربر ، بجفر الرتاح ، ابن يوشاخ، على لوى شمندخ ، بلسانتن القراوق .

مازكلوخ ، إنك أكيت أرس برام ، المسلطنح بالشمردلند مخلوط ، والزيبق بحبال الشمس مربوط علعل بشعلعل ، مات الكركندوش أدعوك في الوليمة ، يا تيس يا حمار يا بهيمة ، أعيذك بالرحواح ، وأبخرك بحصى لبان المستراح ، وأوفيك وأوقيك ، وأرقيك ، برقوات مرقات ، برقوات مرقات قرقوات البطون ، لتخلص من داء البرسام والجنون .

ونـزل مـن دكانـه ، مستغيثاً بجيرانـه ، وقـبض لحيـة النـحـوي بكفيـه ، وخنقـه بإصبعيه ، حتـى خـرّ مغشياً عليـه ، وبربـر في وجهـه وزمجـر ، ونـأى بجانبـه واستكبر وشخر ونخر ، وتقدم وتأخر .

فقال النحوي مستغربا مستغيثا : اللّه أكبر اللّه أكبر ، ويحك أنت تجننت ؟

فقال له : بل أنت تخرفت .!!

وهكذا انتهت قصة النحوي الذي أراد أن يشتري نعلاً من إسكافي لا شأن لـه باللغة فانتهي ذلك به إلى ما لا تحمد عقباه من المهانة والفضيحة ، وقد حكى لنا هذه الحكاية ابن شاكر الكتبى في فوات الوفيات (١٠٢/٢) وابن تغري بردي في المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (٢٢٦/٦) والذي يتتبع نوادر النحاة في كتب التراث يجد من أمثالها الكثير والكثير ولكن عليه أن يحتاط لنفسه بكثير من الصبر والأناة حتى لايصاب بما أصيب به النحاة من حب الغريب من اللفظ حتى لا تتأثر حياته الزوجية في عصرنا هذا الذي يتميز بالقلق ونفاد الصبر .

ملحوظة :

الكلمات الغريبة في عبارات الإسكافي لا أصل لها في اللغة فهي ليست ذات معنى وإنما هي تعبير عن ضيقه بحذلقة النحوي .!!